البلاغة الجديدة في ضوء التلاقح المعرفي

(قراءة في جدلية التأصيل والتجاوز)

د. نور الدين دحماني(*)

تمهيد:

ترتدُّ فلسفة التلاقح المعرفي عمومًا إلى بدايات التفكير الإنساني من خلال السعي الحثيث لفك أسرار الطبيعة وألغاز الكون، تأسيسًا على عِلْم الأسماء الذي تلقَّاه أبو البرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من لدن البارئ عَزَّوَجَلَّ. فتعدُّد موضوع العلم محدَّدًا في تلك الأسماء يوحي بأن ثمة تقاطعًا قد يحدث بينها ضمن مجالات مختلفة من حياة البشر.

ويتخذ التلاقح المعرفي ضمن الدراسات الأدبية واللُّغوية مظاهر وأشكال عدَّة على مستوى الأنساق المعرفية والمدارس والنظريات والمذاهب والمناهج والمفاهيم والمصطلحات، ليلغي الحدود القائمة بين العلوم، ويمد جسور التقاطع في ما بينها، ويزيح الوهم في اعتبارها مجرَّد كيانات مستقلة منكفئة على ذاتها، ومنعزلة عن بعضها البعض.

واللافت للانتباه إذا ما استقصينا موروثنا العلمي في شتَّى أنساقه وتشعُّباته وتخصُّصاته الأدبية واللُّغوية، أنه يُصَدِّق هذه الحقيقة، فبوسعنا إذًا أن نطرَح موضوعًا بحجم البلاغة العربية ذات الامتدادات العريقة والأفنان المثمرة في سياق التلاقح المعرفي الذي أخصَب قديمًا هذا العلم المتواشج مع الفن. ولا غَرْوَ

(*) جامعة الإمام عبد الحميد بن باديس - مستغانم - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

إذًا أن نلفي هذا التكامل غدا ضرورةً معرفية تحكم تخلُّق البحث البلاغي الحديث ضمن ما صار يعرف بـ«البلاغة الجديدة» التي صار بمكنتها الانفتاح على أنساق عدَّة كالتداولية ونظرية أفعال الكلام والمنطق، ونظرية الاتصال والحِجاج واللسانيات والأسلوبية وغيرها، وأضحى بالتالي محتومًا أن يُستأنف البحث البلاغي المعاصر في ضوء ذلك التلاقح.

ولتجديد البلاغة العربية وسعيًا إلى بعثها من السُّبات الذي خَلَدت إليه طويلًا، وبالتالي إعادة قراءتها وتفسيرها، يحسُن بنا بدءًا النظرُ في ما توصلت إليه البلاغة الغربية الجديدة، والإفادة من منجَزاتها، واستقصاء مفهوم البلاغة الجديدة والتعريف بطبيعتها واتجاهاتها ومباحثها وجهود أعلامها، ونقاط التشابه والاختلاف بين بلاغتنا العربية والبلاغة الغربية الجديدة، وأيضًا عن سبل إفادتنا من آليات البلاغة الجديدة لخدمة بلاغتنا العربية وتوسيع مجالاتها، لتستجيب لضرورات العصر اللُّغوية والأدبية وغيرها.

والإشكال الذي نروم مناقشته ضمن البحث يتحدَّد كالآتي: إلى أي مدى يمكن لهذا المسلك الجديد الذي شهده الدرس البلاغي حديثًا، والذي غذَّته التصوُّرات الغربية الوافدة إلى تخوم البحث البلاغي العربي، أن يستجيب لمقتضيات التأصيل؟ وما طبيعة الانعكاسات التي يلوح بها هاجس القطيعة والتجاوز على اللُّغة العربية؟ وما هي الإستراتيجيات التي تراهن عليها اللُّغة العربية، علمًا أن من خصوصياتها المركوزة فيها طابع المرونة الذي يكفل لها مواءمة روح كل عصر؟

وسنحاول في هذا المقام تَرَسُّم جملة من الأهداف أبرزها الآتي:

أولًا: تأصيل المفاهيم التي تمخضت عنها دعوات تجديد البلاغة العربية.

ثانيًا: السعي لصياغة نظرية بلاغية حديثة تستجيب للتطلُّعات المعرفية الجديدة، وترنو لأن تكون امتدادًا للتراث البلاغي العربي.

ثالثًا: التأكيد على سمة المرونة التي تنطوي عليها اللُّغة العربية بعامَّة، وعلم البلاغة بخاصة.

نظرية البلاغة العربية في التراث:

تبوَّأت البلاغة العربية لدى القدماء منزلَةً مهمَّة من أبحاث اللُّغة لا نتصوَّر ما يضارعها عند الأمم الأخرى، وقد استمدَّ هذا البحث المعمَّق قيمته من أن العرب جُبِلوا على صنعة الكلام شعرًا ونثرًا، وحَذَقوا طرائقه، وبرعوا في أفانين البيان حتى خَلَبوا به الألباب وسحروا به الأسماع، إنْ على المستوى التواصلي النفعي المتمثِّل في مخاطباتهم العادية، أو على المستوى الفني الذي طفحت به قصائدهم وخطبهم وأمثالهم وحكمهم. وما يعكس وَلَعهم الشديد بهذا الفن هو احتفاؤهم المتقدِّم بضبط مفهوم البلاغة الذي اتسم بثراء التصوُّرات وتنوُّعها، وقد حصر منها الجاحظ ما يحملنا على تقدير مدى وَعْيهم بأهميتها.

وجليٌّ للعيان أن البلاغيين العرب راحوا يضعون لمصطلح البلاغة كثيرًا من التحديدات، فهي «إبلاغ المتكلِّم حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة»[1]، وإلى نحو ذلك ذهب أبو هلال العسكري (ت نحو 395هـ)؛ إذ يقول: «فنقول: البلاغة كل ما تبلِّغ به المعنى قلبَ السامع فتمكنه في نفسه كتمكُّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن»[2]. وحينما سُئل الشاعر العباسي العتابي (ت قبل 220هـ): ما البلاغة؟ أجاب: «كُلُّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة فهو بليغٌ»[3]. وقال الجاحظ (ت255هـ) عن البلاغة: «لا يكون الكلام بمستحقٍّ اسمَ البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبقَ من معناه إلى قلبك»[4].

وهناك طائفة من الأقوال أُثِرت عن البلغاء وأهل اللُّغة والأدب تَشي بتصوُّر كل واحد منهم للبلاغة؛ فقد سئل أحدهم: ما البلاغة؟ فقال: قليل يُفهم وكثير لا يُسأم. وسئل آخر، فقال: معان كثيرة في ألفاظ قليلة. وقيل لأحدهم: ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز. وسئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظًا، وأحسنهم بديهة. وقال خلف الأحمر (ت نحو 180هـ): البلاغة لمحة دالَّة. وقال الخليل بن أحمد (ت175هـ): البلاغة كلمة تكشف عن البغية. وقال المفضَّل الضبي (ت نحو 168هـ): قلت لأعرابي: ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خَطَل. وكتب جعفر بن يحيى خالد البرمكي (ت187هـ) إلى عمرو بن مَسْعَدة (ت217هـ): إذا كان الإكثار أبلغ، كان الإيجاز تقصيرًا، وإذا كان الإيجاز كافيًا، كان الإكثار عيًّا[5].

أما قدامة بن جعفر (ت337هـ) فالبلاغة عنده ثلاثة مذاهب: المساواة وهي مطابقة اللفظ المعنى لا زائدًا ولا ناقصًا، والإشارة وهي أن يكون اللفظ كاللمحة الدالَّة، والدليل وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، ليظهر لمن لم يفهمه ويتأكَّد عند مَن فهمه[6].

وقال آخر: البلاغة معرفة الفَصْل من الوصل. وقيل البلاغة: حسن العبارة مع صحة الدلالة. وقيل: البلاغة القوة على البيان مع حسن النظام. وقالوا: البلاغة ضد العيِّ، والعيُّ: العجز عن البيان. وقيل لخالد بن صفوان (ت135هـ): ما البلاغة؟ قال إصابة المعنى والقصد إلى الحجَّة...[7].

ويورد الجاحظ تعريف ابن المقفَّع (ت142هـ) للبلاغة، فهي عنده: «اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل؛

فعـامَّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة الى المعنىٰ والإيجاز هو البلاغة»[8].

ويبدو لنا هذا الحدُّ أكثر الحدود ضبطًا وشمولية؛ لأنَّه لَمْلَم العناصر الأساسية في ضبط مفهوم البلاغة: منها ما يرتبط بالمتكلِّم، ومنها ما يتصل بالمتلقِّي، ومنها ما يتعلَّق بطبيعة الكلام، وذلك كلُّه صار لدىٰ المحدَثين أدْخَلُ في نظرية السياق؛ وتلك العناصر التي وسَّع البلاغيون بحثها قديمًا وحديثًا وجعلوها من صميم البحث البلاغي.

تلك - إذًا - أقوال وآراء متباينة في وصف البلاغة، بيد أنَّ النظر في كلٍّ منها لا يشكِّل مفهومًا جامعًا مانعًا للعلم الذي نحن بصدده، ولكن ربما التمسنا مفهوم البلاغة المنشود في طيَّات بعض هذه الأقوال: فهي وضع الكلام في موضعه اللائق به من طول وإيجاز وفصل ووصل، وتأدية المعنىٰ علىٰ أكمل وجه من الوضوح من جهة المعنىٰ، وعلىٰ أكمل وجه من الصحَّة والفصاحة من حيث الأسلوب وصيغة العبارة مما يدع في النفس أثرًا خلَّابًا، هذا مع مراعاة كل كلام للمقام الذي يقال فيه و لطبيعة المخاطَبين به.

ولقد كان لعلم البلاغة فضلٌ عظيم في الكشف عن أساليب العرب وطرائقهم في التعبير، وتَراكيبهم اللُّغوية، وما تَمتاز به من قوَّةٍ وجمال؛ في اللفظ والمعنىٰ، والعاطفة والخَيال والتصوير؛ ممَّا أعان كثيرًا علىٰ فَهْم تُراثنا، وتقدير لُغتنا، وبَيان إعجاز القرآن الكريم، بل إنَّ دراسة الإعجاز وإدراكه كان الهدف الأسمىٰ الذي من أجْله وُضِعَ علم البلاغة؛ حيث يقول ابن خلدون (ت808هـ): «واعلم أنَّ ثمرة هذا الفن، إنما هي فَهْم الإعجاز من القرآن»[9]. فالبلاغة العربيَّة - إذًا - دينية النشأة، قرآنية المولد، دَرَجتْ ونَمتْ في رحاب كتاب الله، تستهدي من آياته، وتتشرَّب معانيَه، قبل أنْ تتناولَ الأدب العربي بوجْه عام.

وأما الخطيب القزويني (ت739هـ) فيعرِّفها بالقول: «وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام»[10]. إن ما يميِّز هذا التحديد هو تركيزه على نظرية المقام التي تركِّز على مستويات الكلام والمتكلِّم والمخاطَب، وهو في ذلك يردِّد موقف البلاغيين المتقدِّمين.

والحقيقة أن البلاغة كما عرَّفها بعض المحْدَثين: «فنٌّ قوليٌّ يعتمد على الموهبة وصفاء الاستعداد، ودقة إدراك الجمال، وتبيُّن الفروق الخفيَّة بين شتى الأساليب»[11]. ويشير هذا التعريف إلى المقوِّمات الفنية والتي كانت مركوزة فطريًّا في العربي القديم وصقلت مخيَّلته، وجعلته يقبل على الخوض في شتى الأغراض والموضوعات باقتدار أدبي عجيب يأخذ بمجامع القلوب ويقذف فيها نفثات سحر البيان.

لقد عرف العرب كتابي أرسطو (فن الخطابة) و(فن الشعر)، إلا أنهم لم يتفاعلوا مع تعاليمهما؛ إذ إن كتابه (فن الخطابة) فن للإقناع ويتحدَّث عن التأليف الخطابي، كما أن كتاب (فن الشعر) يتحدَّث عن أنواع شعرية مركَّبة وصعبة يجهلها العرب، مثل: المأساة والملهاة والملحمة، ولذلك أهملوا تقسيمات الكتابين وتحليلاتهما.

ولعلَّ ظروف المجتمع العربي قديمًا لم تسمح لهم بتخطِّي تجارب أدبهم شعره ونثره، وإذا ما تجاوزوها فلغاية الوقوف عند قضية الإعجاز القرآني، التي ألحَّ عليها استقصاؤهم إلحاحًا لغويًّا وبلاغيًّا وكلاميًّا. فقد كان من أهم ما قدَّم في

دراسة البلاغة إسهامات الدارسين الذين انكفأوا لبحث موضوع الإعجاز القرآني، فقد اتجهوا إلى البلاغة باحثين في فنونها، موضِّحين أقسامها لتكون لهم عونًا على فهم القرآن الكريم، ولكي يبرهنوا على إعجازه ومن ثَمَّ تيسير استنباط أحكامه.

ومعلوم أن مفهوم العرب القدماء للبلاغة قد ارتبط من ناحية بالأسلوب، ومن ناحية أخرى بالفصاحة؛ فأما الأسلوب فقد كانت الصلة جدَّ وثيقة، سيَّما خلال المرحلة التي بدأ يُنظَر فيها إلى البلاغة على أنها وصف للكلام إذا امتاز بخصائص وسمات معينة، وأصبحت هذه الخصائص في ما بعد أبواب علوم البلاغة التي قامت بمحاولة لحصر أساليب الكلام كافَّة وضمها تحت كليات عامة.

وأما في ما يخصُّ عَلاقة مفهوم البلاغة بمفهوم الفصاحة فقد كانت بؤرة سجال نظري حقيقي بين البلاغيّين، فأبو هلال العسكري يرصد لنا موقفين حيال مفهوم الفصاحة، يذهب أحدهما إلى أن: «الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنىً واحد وإن اختلف أصلاهما؛ لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنىٰ والإظهار له»[12]، ومعنىٰ ذلك أن المصطلحين مترادِفان، لا فرق بينهما في الدلالة، بينما يقرِّر الموقف الثاني أنهما «مختلفتان، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان، فهي مقصورة على اللفظ؛ لأن الآلة تتعلَّق باللفظ دون المعنىٰ. والبلاغة إنما هي إنهاء المعنىٰ إلى القلب، فكأنها مقصورة على المعنىٰ، ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنىٰ، أن الببغاء يسمىٰ فصيحًا ولا يسمىٰ بليغًا؛ إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنىٰ الذي يؤدِّيه...»[13]. وواضح أن هذا الكلام ينطوي على تمييز بين دلالة المصطلحين، الأمر الذي دفع ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) في ما بعد للتفريق بينهما، من حيث إن الفصاحة

تقتصر على وصف الألفاظ، بينما البلاغة لا تكون إلا وصفًا للألفاظ مع المعاني، ومن هنا نجده يقرِّر قاعدته الشهيرة من أن كل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغًا[14].

أما الجُرْجاني (ت474هـ) فيرفض رفضًا صارخًا أن تكون «الفصاحة راجعة إلى المعنى دونَ اللفظِ؛ لأنا نرى الناسَ قاطبةً يقولون: هذا لفظٌ فصيحٌ وهذه ألفاظٌ فصيحة. ولا نرى عاقلًا يقولُ: هذا معنًى فصيحٌ وهذه معانٍ فصاحٌ...» [15]، ومع ذلك فقد شاب موقفَه بشأن الفصاحة اضطرابٌ وغموضٌ بسبب لغته المنطقية التي فرضها منهجه الجدلي على طريقة المتكلّمين، ويبدو ذلك في قوله: «**إن غَرَضَنا من قولنا**: إنَّ الفصاحةَ تكون في المعنى أنَّ المزيَّةَ التي من أجلِها استحقَّ اللفظُ الوصفَ بأنه فصيحٌ عائدةٌ في الحقيقة إلى معناه. ولو قيل إنها تكون فيه دونَ معناه لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظةِ إنها فصيحةٌ أن تكونَ تلك الفصاحةُ واجبةً لها بكل حالٍ».

ثم نراه يطرح ذلك بالقول: «**ومعلومٌ أنَّ الأمْرَ بخلافِ ذلك**، فإنا نرى اللفظةَ تكون في غايةِ الفصاحةِ في موضعٍ ونراها بعينها في ما لا يُحصى من المواضِع وليس فيها منَ الفصاحة قليلٌ ولا كثيرٌ. وإنما كان كذلك لأنَّ المزيةَ التي مِنْ أجلها نَصِفُ اللفظَ في شأننا هذا بأنه فصيحٌ مزيةٌ تحدثُ مِنْ بَعْدِ أن لا تكونَ وتظهرُ في الكلم من بعد أن يدخُلَها النظم»[16]، فبالكاد يقبض القارئ على حقيقة تصوُّره، رغم أنه سعى إلى الارتقاء بالفصاحة إلى مستوى النظم وفق ما تمليه عليه عقيدته الأشعرية.

وقد عُني البلاغيون العرب القدامى ضمن بحث البلاغة بموضوعين كبيرين، أولهما: تركيب الجملة العربية بلاغيًا، وثانيهما: أسرار الحسن فيها، ففي الجملة درسوا بناءها، وأشكال تراكيبها ومعانيها، وأبرز نظرياتهم فيها ما عُرف بنظرية

النظم في بلاغة القول، التي أقام الإمام عبد القاهر الجرجاني دعائمها؛ إذ ربط (النظم) بمعاني النحو، وهي المعاني التي بنىٰ عليها السَّكَّاكي (ت626هـ) علم المعاني، ومدارها حول بلاغة الإسناد.

وقد رسَّخ السكاكي مباحث علم البلاغة التي فرَّعَها إلىٰ علوم تشمل علمي (المعاني والبيان) وحدَّد مباحثهما، (فعلم البيان يعرف به أداء المعنىٰ الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، أما علم المعاني فيدرس أحوال اللفظ العربي في التراكيب اللُّغوية)، ثم أُضيف إليهما بعد ذلك علم ثالث هو (علم البديع) الذي يقف عند وجوه تحسين الكلام من جهة اللفظ والمعنىٰ، فأصبحت البلاغة لديه علمًا لدراسة الأساليب وكشف خصائصها، وقد عرفها بقوله: «البلاغة هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعنىٰ حدًّا له اختصاص بتوفية خواصّ التراكيب حقَّها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية علىٰ وجهها»[17]. فتحددت البلاغة بخواصَّ يشتمل عليها الحدث الكلامي، هي خواصُّ تراكيب الكلام.

لقد تجاذبت البحث البلاغي في التراث مدرستان بارزتان هما مدرسة المتأدِّبين التي كلفت بالمنحىٰ الجمالي الفني وانكفأت علىٰ تذوُّق النصوص الأدبية بغية استجلاء مَكامن البراعة البيانية وحسن الأداء التعبيري، فراحت تترسَّم الغاية الأدبية، ومدرسة المتكلِّمين التي ضمَّت تحت مظلَّتها مذاهب كلامية عديدة أبرزها المذهب الاعتزالي والمذهب الأشعري، وجعلت من قضية الإعجاز القرآني منطلقًا وغاية معًا، كما بدَت جِدُّ متأثِّرة بمنهج الاستدلال لدىٰ علماء الكلام والمناطقة، وراحت تستمدُّ منهم آليات التفريع والتقسيم المنطقي لمباحث البلاغة.

ويفضي إنعام النظر في مسار البحث البلاغي لدىٰ الدارسين العرب القدماء إلىٰ استخلاص مرحلتين تشكِّلان مفصليتين متمايزتين، تتصل إحداهما بالغاية العلمية وهي التي كلفت بتأصيل مباحث البلاغة وتأسيس أُطرها النظرية، وممن

رسَّخوا هذه الغاية نذكر الجاحظ وابن المعتز (ت296هـ) والعسكري وابن سنان والجرجاني. وأما المرحلة الثانية فيميِّزها انعطاف دارسي البلاغة إلى ترسيخ الغاية التعليمية، حيث تحوَّل محور الاهتمام صوب تقعيد الدرس البلاغي وتخليصه من كثرة الشروح التي اكتنفته، بغية تيسير فهمه وتعلُّمه. ولعلَّ السكاكي ومَن جاء بعده كالخطيب القزويني والفخر الرازي (ت606هـ) والسبكي (ت771هـ) والتفتازاني (ت793هـ) من أهم مَن مثَّل هذه المرحلة التي ما زالت امتداداتها قائمة في العصر الحديث.

مفهوم البلاغة الجديدة والبُعد الحِجاجي (مدارات البحث الأجنبي):

لا يختلف اثنان في أن التجديد مقولة حيوية أصيلة في تراثنا الديني والفكري والعلمي واللُّغوي والأدبي العربي الإسلامي، ولعلَّها مستقاة من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[18]، والعلم من مُشتَمَلات الدين الحنيف، لا سيما إذا تعلَّق الأمر بأحد علوم العربية التي نزل بها كتابنا الكريم، وأحد الأدوات الضرورية لفهم الأحكام والتعاليم العقدية والشرعية التي جاء لتقريرها. ومن هنا ألفينا دارسي اللُّغة والأدب على مرِّ العصور يُعنَوْن بمبدأ التجديد بوصفه أحد الأسس التي تعمل على تكييف المعطى العلمي المتوَارَث مع الروح الثقافية لكلِّ عصر، بغية تحقيق نوع من التوازن بين الحاضر والماضي، والتفاعل المعرفي البنَّاء الذي يَسترفِد من الأدوات الجديدة ما يمكِّنه من إضاءة معالم القديم وتحسُّس نتوءات الأصالة فيه.

وحينما نتحدَّث عن البلاغة الجديدة لا بدَّ من التنبيه إلى ضرب من اللبس والخلط اللذين قد يطرآن على الفهم؛ إذ إن هذا المصطلح الذي شاع لدى المعاصرين لا ينبغي أن نفهم منه ما يقابل البلاغة العربية في التراث، بل المقصود

من إطلاق الجديد إنما هو قسيم البلاغة الكلاسيكية القديمة لدى الغربيِّين، أو ما يُعرف بـ«الخطابة الجديدة»، التي ترتدُّ أصولها المعرفية إلى أرسطو ومن جاء بعده. فهناك خلط قد يغالط الدارسين، وينأى بهم عن تمثُّل السياق الحضاري لهذا الحقل المعرفي. ومنشأ هذا الاضطراب يتحدَّد في معنى مصطلح ريطوريقا Rhéthorique وَفْق التصوُّر الأجنبي الذي يحيل إلى ثلاثة مفاهيم كبرى:

أحدها أدبي هو البلاغة بوصفها فنًّا قوليًّا يُعنَى بصور الأساليب، أو علما للخطاب الجيِّد، وثانيها هو المفهوم الأرسطي الذي يفردها لآليات الإقناع في مجال الخطابة بوصفها حقلًا خصبًا للمحمولات الحِجَاجية، وهو المقصود بالبلاغة الجديدة. بينما المفهوم الثالث فهو نسَقي يسعى لأن تصير البلاغة علمًا أعلى يشمل بُعْدَي التخييل والحِجاج معًا، بمعنى أنه يستوعب المفهومين الأوَّلين ضمن منطقة تقاطعهما، ويعمل على توسيع هذه المنطقة قدر الإمكان، وبالتالي استرجاع البُعد المفقود الذي تعمل البلاغة حديثًا على استعادته، وهو البُعد الفلسفي التداولي[19].

ويرى محمد العمري أن الترجمات المقابلة لمصطلح Rhétorique «كثيرًا ما خرجت عن سياقها الغربي، أو أُخرجت منه بفعل الترجمة إلى العربية بكلمة «بلاغة» دون تقييد، فأدَّى ذلك إلى الخلط والتشويش على القرَّاء. والشيء نفسه يُقال عن ترجمة الريطوريقا الأرسطية بكلمة «خطابة» على الإطلاق في بعض الأعمال التي حاولت تلافي الخلط، ولذلك نقترح ترجمة الريطورية الأرسطية بكلمة «خطابية» قياسًا على كلمة «شعرية» التي بسطت سلطتها في مجال التخييل؛ موضوع الأولى الخطابة بمعناها العام، و موضوع الثانية الشعر بمعناه العام»[20].

أما إذا رُمْنا إطلاق البلاغة الجديدة على مستوى الدرس البلاغي العرَبي فإن الأمر ينصرف إلى تجديد آليات البحث في بلاغتنا العربية القديمة التي أرسى دعائمها الجاحظ والعسكري والباقلّاني (ت403هـ) وابن سنان والجرجاني والسكاكي والقرطاجنّي (ت684هـ) ... وغيرهم من أعلام البلاغة، وهو الأمر الذي سَنُلِمُّ ببعض جوانبه لاحقًا ضمن هذا البحث.

انطلاقًا من هذا التنبيه يقتضي المنهج أن نتحدَّث عن البلاغة الجديدة من المنظور الغربي، حيث يولي كل من شايم بيرلمان (Chaïm Perelman) وأولبريخت تيتيكا (Lucie Olbrechts Tyteca) عنايتهما بها، ويعقدان صلة بينها وبين الحِجَاج والإقناع، متأثِّرَين في ذلك بأرسطو. فلا يرى بيرلمان أيَّ فرق بين البلاغة والحِجاج ما دام أن غايتهما واحدة هي الإقناع والتأثير، مما يَشي بأن البلاغة حِجاجية بامتياز، فالتوليفات الأسلوبية والصور البيانية والمحسِّنات البديعية ذات وظيفة حِجاجية بالمقام الأول. ومن ثَمَّ يقترن اسم بيرلمان بالبلاغة الحِجاجية. ولعلَّ من أبرز ما يسفر عن توجُّهاته البلاغية الجديدة مؤلَّفه الموسوم بـ (البلاغة الجديدة - مصنَّف في الحِجاج) الذي ألَّفه بالاشتراك مع أولبريخت تيتيكا[21].

جعل بيرلمان من الخطاب أو ما يسمى عند أرسطو بـ«حجة اللوغوس Logos» محطَّ عنايته، وذلك فضلًا عن عنايته بـ«حجة الإيتوس Ethos» أو (القيم الفضلى والأخلاق التي يفترض أن يتحلَّى بها القائل)، و«حجة الباتوس Pathos» أو (الأهواء والانفعالات التي تتَّصل بالمتلقي) معًا، مما يفيد أنه قد استند إلى ثلاثة مرتكَزات محورية ضمن الخطاب البلاغي، هي: اللُّغة (اللوغوس)، والمرسِل (الإيتوس)، والمرسَل إليه (الباتوس). وهذه التوصيفات الثلاثة تمثل وسائل الإقناع أو نوع الحجج التي ذكرها أرسطو، وبنى عليها المحْدَثون الغربيون مفاهيم الحِجاج المنطقي.

وقد اهتمَّ كل من بيرلمان وتيتيكا في كتاب (مصنَّف في الحِجاج) بتاريخ البلاغة في ضوء بعدها الحِجاجي. وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدلُّ على أن بيرلمان قد أسَّس بلاغة جديدة هي بلاغة الحِجاج. وقد ذاع صِيتُ نظريته بشكل كبير في سبعينيات القرن العشرين. ومن ثَمَّ فقد بنى بيرلمان البلاغة الجديدة على أسس حِجاجية ومنطقية وفلسفية محضة، متأثرًا في ذلك بأرسطو في كتابه (الريطوريقا / البلاغة)؛ إذ تمكَّن بيرلمان من تمثُّل المنهج الأرسطي في التعامل مع البلاغة في ضوء رؤية حِجاجية إقناعية، بمنأى عن منظور أفلاطون الجدلي.

وتبدو معالم البلاغة عند بيرلمان أبعَد عمقًا وأكثر وضوحًا ممَّا طرحه أرسطو قديمًا، علمًا أنه انطلق من أفكاره في تجديد البلاغة الغربية المعاصرة، مضيفًا إليها تصورات حِجاجية جديدة. فبيرلمان قد عكف على آراء أرسطو بشأن البلاغة شرحًا وتوسيعًا ومناقشة. وقد اهتدى إلى أن يوجز تصوُّره الخاص بالبلاغة في كونها بَرْهَنة استدلالية أو توجُّهًا فلسفيًّا عقلانيًّا لتمييز الأفكار القيِّمة من غيرها، والحُجَج الصواب من الخطأ. وفضلًا عن ذلك تتحدَّد قيمة نظريته الحِجاجية في تبيان طبيعة العلاقة الموجودة بين البلاغة والمخاطَب، فردًا كان أم جماعة، وسواء أكان تأثيرًا أم إقناعًا. والغرض من ذلك كلِّه هو كشف الزيف والوهم واللبس المحتمَل، في سعي لإبراز الحقيقة.

لقد اهتم بيرلمان أيضًا بطرف المرسِل أو الخطيب الذي يستعمل اللوغوس للتأثير على المخاطَب، لكنَّه «يرى أنه ليس من الضروري أن يُخضِع المتكلِّم المخاطَب لرغباته وأهوائه وقناعاته، فيجعله يقتنع بخلاصة أفكاره، بل لا بد أن يعلم أنه إنسان حر، عليه أن يستخدم عقله وحججه لتقويم الأفكار المقدَّمة له، ولو كانت تعارض بشكل من الأشكال أفكار المتكلم جملة وتفصيلًا. ويعني هذا أن بيرلمان يؤمن بحرية الاقتناع والحِجاج. فليس هناك إكراهٌ أو جَبْرٌ في عملية الإقناع والتأثير. فالمخاطب حرٌّ على مستوى الاقتناع أو عدم الاقتناع»[22].

وتتحدَّد الجدَّة في طرح بيرلمان في تجاوزه للبلاغة الكلاسيكية نظرًا لطابعها التعليمي والمعياري والخطابي والمنطقي، فقد باتت تقتضي إقناع المتلقِّي بصحَّة أفكار المتكلِّم ترغيبًا وترهيبًا، مما حمله على رفض هذا التصوُّر الجبري، ليذهب إلى «أن البلاغة الجديدة تهدف إلى إقناع الآخرين بصحَّة أفكار المحاجِج أو عدم الاقتناع بها، إذا كانت لا تتلاءم مع تصوراته ورغباته ورؤاه وقناعاته الذهنية والفلسفية»[23].

ومدار تصوُّر بيرلمان الحِجاجي على العَلاقة التي تربط المتكلِّم بالمخاطَب، علمًا أن الجديد في بلاغة بيرلمان هو التركيز على المخاطَب (المتلقِّي) ضمن رؤية استهوائية إقناعية وتأثيرية، الأمر الذي يُفهَم منه «أنه رَبَط الحِجاج بالمخاطَب أكثر مما ربطه بالمتكلِّم واللوغوس، ومن ثَمَّ فالبلاغة الحِجاجية عنده هي بلاغة غير شكلية (بلاغة ذاتية) مقارنة بالمنطق الصوري (بلاغة موضوعية). ومن ثَمَّ أصبحت البلاغة الحِجاجية حاضرة في المجتمعات السيميائية والديمقراطية، وأصبحت أداة مهمة لبناء المعرفة وفهم عمليات الإقناع والتأثير»[24]. وهذا ما أضفى على البلاغة الجديدة طابعًا اتصاليًّا قائمًا على المرونة؛ لأنها تعنى بآليات بناء القناعات والمواقف والمنافَحة عنها بسبل سلمية وحوارية بمنأى عن صرامة الاستدلالات البرهانية وأساليب المغالَطة والمناورة والسَّفْسَطة والتمويه التي لطالما شابت البلاغة القديمة، سواء لدى اليونان أو الرومان.

وينظُر بيرلمان إلى الحِجاج من وجهة بلاغية، مركِّزًا على المخاطَب واللُّغة التي يستخدمها المتكلِّم لإقناع المتلقِّي نحويًّا ومعجميًّا؛ بغية الوصول إلى الحقيقية عبر البرهنة والاستدلال، سواء اقتنع المتلقي بذلك أم لم يقتنع. ومن ثَمَّ تسعى البلاغة الجديدة لدى بيرلمان إلى استكشاف آليات الحِجاج عبر التوقُّف عند القضية ونقيضها، والتوسُّل بالأدلة والبراهين والحُجَج، والإشارة إلى التصوُّرات المشتَرَكة التي يتَّفق بشأنها المرسِل والمتلقِّي، واستحضار الخطاطات الحِجاجية،

وإجراء عمليات الاستنباط والاستقراء وخطوات الإقناع والتأثير. وقد أجرىٰ دراسته النموذجية التطبيقية علىٰ «الخطاب القضائي أو الاستشاري، باستعراض مختلف الحُجَج والحجج المضادَّة والتجارِب التي تطرح في هذا النوع من الحِجاج الذي يهدف إلىٰ ممارسة التأثير الذاتي والإقناع الموضوعي»[25].

فالبلاغة لدىٰ بيرلمان ليست تقليدية نظرية كما هو حالها عند اللاتينيين شيشرون (Cicéron) وكينتيليان (Quintilien)، بل هي بلاغة حِجاجية تداولية تطبيقية، تستمدّ آلياتها التطبيقية من المنطق القضائي أو القانوني، دونما التفات إلىٰ طابعها اللفظي أو اللُّغوي، وبالتالي يمكن تقرير أن البلاغة الحِجاجية ليست فقط مجرَّد آليات إجرائية لإقناع الغير، وإفحام الخصوم فحسب، وإنما هي وسيلة نستطيع بوساطتها الاهتداء إلىٰ الحقيقة الثابتة. وإذا كان ديكارت - مدفوعًا بنزعته العقلية التي تجعل من الشكّ سلطانًا - يؤمن بأن المنطق هو السبيل الأمثل لإدراك الحقيقة الثابتة واليقين القارّ، فإن بيرلمان يرىٰ أن البلاغة الجديدة ذات التوجه الحِجاجي هي السبيل لتحصيلهما.

وبما أن الحِجاج شكّل بؤرة اهتمامات البلاغة الجديدة، فقد شُرِّع الباب علىٰ اجتهادات غربية متعدِّدة تمثَّلت في جملة من النظريات الحِجاجية علىٰ غرار نظرية البلاغة الأرسطية في ثوبها الجديد التي طرحها بيرلمان وتيتيكا ونظرية الحِجاج اللُّغوي التي صاغها «أوزفالت ديكرو» O. Ducrot و«أنسكومبير» Anscombre، ونظرية الحِجاج الخطابي التي ظهرت مع «ميشال مايير» Michel Meyer و«موشلر» Moeshler و«أموسي» R. Amossy ، ونظرية الحِجاج التداولي التي تأسَّست استنادًا إلىٰ نظرية أفعال الكلام التي نشأت مع «أوسطين» J. Austin و«سورل» Searl ، ونظرية الحِجاج المنطقي الطبيعي التي عَرفت نشوءها مع «جان بليز غرايز» J. Blaise Grize ؛ مما أفضىٰ إلىٰ انتعاش قضايا البلاغة الجديدة نظرًا وتطبيقًا فغدت بذلك بلاغة اتصال بامتياز.

البلاغة والأسلوبية:

إذا كان الأصل الاشتقاقي لكلمة «أسلوب» يُطلق عربيًّا مجازًا على الطريق الممتـدِّ، والسطر من النخيـل، والمذهب، والوجه[26]، فإنه تمَّ اجتراح مصطلح الأسلوبية (Stylistique) لدى الغربيين من الكلمة اللاتينية (Stilus)، ومن الكلمة الإغريقية (Stylos)، ومن الكلمة الفرنسية أو الإنجـليزية(Style)، وتفيد هذه الاشتقاقات في دلالاتها الأصلية معنىً أداة الكتابة، ليتمَّ بعد ذلك استخدام الكلمة للدلالة على طريقة الكتابة أو فن الكتابة. ويعرف الأسلوب اصطلاحًا بأنه «اختيار لغوي من بين بدائل متعددة؛ إذ إن الاختيار سرعان ما يحمل طابع صاحبه، ويَشي بشخصيته، ويشير إلى خواصِّه»[27]. كما تهتم الأسلوبية باللُّغة الأدبية، وتعنىٰ بعطائها التعبيري[28].

ويمكن تعريف الأسلوبية (Stylistique) بأنها الدراسة العلمية للأسلوب، في مختلف تمثُّلاته اللسانية والبنيوية والسيميائية والتأويلية. كما تعدُّ أيضًا فرعًا من فروع اللسانيات على غرار الشعرية والسيميائيات والتداوليات. وتعنىٰ بوصف الأسلوب بنية ودلالة ومَقْصِدية، فتختلف بذلك عن البلاغة الكلاسيكية ذات الطابع المعياري التعليمي التي كانت تهتم بالكتابة والإبداع، وتجويد الأسلوب من حيث التراكيب والبيان والدلالة والسياق والأداء الزخرفي، وتمنح الكاتب الناشئ جملة من الوصفات الجاهزة في عملية الكتابة، وتنميق الأسلوب بلاغة وفصاحة وتأثيرًا.

فالأسلوبية إذًا هي دراسة الأسلوب في شتىٰ مستوياته؛ الصوتية والدلالية والتركيبية والتداولية، وتهتم بتحسُّس خصائص الأسلوب الأدبي وتمييزه عن ما هو غير أدبي، مع حَصْر مواصفاته المتميزة، وتحديد سماته الفردية المحقِّقة لبُعد الأصالة، والكشف عن مقوِّماته الفنية والجمالية، وتبيان آثار ذلك كلِّه على

المتلقِّي ذهنيًّا ووجدانيًّا وحركيًّا. وبالتالي فإن الأسلوبية تهتم بالأجناس الأدبية وصِيغ تأليف النصوص[29].

منذ أن نشأت الأسلوبية في رحاب البحث الغربي مع شارل بالي الذي تَلمذ على رائد اللسانيات فرديناند دي سوسير، ثم ترعرعت بعد ذلك مع بوفون وميشال ريفاتير، بدأت أصوات تعلو معلِنة أنها ظهرت على أنقاض البلاغة التقليدية، التي بلغ الشطط ببعضهم أن أعلن موتها، كما هو الحال مع الناقد عبد الله الغذامي[30]، على زعم أنها استنفدت إمكاناتها التعليمية، بتحجُّر مقاييسها المعيارية ثم، أصبحت آفاقها المستقبلية مسدودة، من هنا أُشيعَ أن الأسلوبية تُعَدُّ الوريث الشرعي لها، وكأننا نتلقَّى نعي البلاغة هذا العلم العريق الذي يُعَدُّ إمبراطورية استحكَم نفوذها على حدِّ تعبير بيرلمان والباحث العربي محمد العمري. والحقُّ يقال إن الأسلوبية - في ما نقدِّر - ما هي إلا إمارة متمرِّدة من إمبراطورية البلاغة، على الأقلِّ بالنسبة إلى أفق الاشتغال العربي.

ولكن يبدو أن فكرة موت البلاغة صارت صيحَة استلهمها النقَّاد البنيويون من فكرة موت المؤلِّف في مقارباتهم النَّسَقية، حيث يراهنون على استبعاد المؤلِّف والمحيط الخارجي للنص، اكتفاء بأنساقه وأنظمته اللُّغوية، فلطالما نادوا بموت المؤلِّف وموت الإنسان[31]، والآن ها هم الأسلوبيون يزعمون موت البلاغة. لذلك فمن غير المعقول الخلط بين المناخ المعرفي للبلاغة العربية، والمناخ المعرفي للبلاغة الغربية، ولا ينبغي - بالتالي - الحكم على مدى نجاعتهما وقابليتيهما لمسايرة الراهن العلمي المعاصر بعين نقدية واحدة، وهي المغالَطة التقويمية التي وقع فيها - في ما يبدو - العديد.

ترعرعت الأسلوبية، بوصفها بلاغة علمية جديدة، في أحضان الشَّكْلانية الروسية، والنقد الجديد، فاستلهمت تصوُّرات الشعرية (Poétique)، ثم تبنَّت

المفاهيم اللسانياتية بمختلف مدارسها، وأفادت مؤخَّرًا من منجَزات النظريات التداولية[32]. وقد لقيت تجاوبًا معرفيًّا في مختلف البلدان الغربية، كفرنسا، وروسيا، وألمانيا، وبريطانيا، وأمريكا... وبعد ذلك، انتقلت الأسلوبية الغربية إلى مضمار الاشتغال العربي بفعل عوامل مختلفة، منها الترجمة والمثاقَفة والمتطلَّبات التعليمية الأكاديمية؛ ومن أبرز أعلامها عربيًّا عبد السلام المسدِّي ومنذر عياشي وصلاح فضل. والواقع أنه كانت للعرب القدامى في الحقيقة أسلوبية متميِّزة أصيلة، قد سبقت بقرون كثيرة الأسلوبية وَفْق ملمحها الغربي، غير أن الأسلوبية العربية الحديثة والمعاصرة تتسم بالنزعة التوفيقية بين الأسلوبية التراثية والأسلوبية الغربية المعاصرة.

فالأسلوبية إذًا هي مقارَبة منهجية نظرية وتطبيقية، يمكن تمثُّلها في الحقلين الأدبي والنقدي لتوصيف الظواهر الأسلوبية البارزة التي تميِّز المبدع، عن الكتاب والمبدعين الآخرين. ومن جهة أخرى، تتمحَّض الأسلوبية، بصفة خاصة، لدراسة الأجناس الأدبية، وسَبْر أدبية النصوص والخطابات والمؤلَّفات، ودراسة الوظيفة الشعرية، والتمييز بين الأساليب الحقيقية والمجازية، والصريحة والضمنية، مع تحرِّي بلاغة النص، وتحديد المستويات اللسانية للخطاب من: صوت، ومقطع، وكلمة، ودلالة، وتركيب، وسياق، ومقصدية، وربط كل ذلك بموهبة الفرد المبدع وأصالته، أو العمل على دراسة الأسلوب في ضوء المعطيات النفسية أو الاجتماعية[33].

وفي ما يتصل بموضوع الأسلوبية فلا شكّ أنه الأسلوب، بيد أن المقاربة الأسلوبية تطرح مواضيع أخرى للمناقشة والاستقصاء والتحليل، من أبرزها: موضوع الكتابة والصياغة، وموضوع التلفُّظ، وثنائية التعيين والتضمين، وثنائية التقرير والإيحاء، وثنائية الاتساق والانسجام، وقضية الانزياح، وقضية التجنيس

الأدبي في ضوء المعايير الأسلوبية والشكلية، والاهتمام بأدبية النص الأدبي، ودراسة الوظيفة الشعرية، ورصد الصور البلاغية، ودراسة نظرية أفعال الكلام، والعناية بثنائية اللفظ والمعنى، أو الدالّ والمدلول. ولعلّ هذا التصوُّر الواسع لموضوع البحث الأسلوبي هو ما يدعم اعتبارها تجلِّيًا من تجلِّيات البلاغة الجديدة حسب منظور بعض النقاد.

إذا ما أُتيح لنا تقصِّي المسار التاريخي للأسلوبية لدى الغربيين، فسنُلْفي أنها قد مرَّت بمراحل أربع هي: مرحلة أسلوبية المؤلف أو الكاتب، وفاقًا لما قرَّره بوفون (Buffon) من أن: «الأسلوب هو الرجل نفسه»؛ ويعني هذا أن المبدع لا بدَّ أن يتميز في كتاباته الإبداعية والوصفية بأسلوب شخصي أصيل، يكون علامة دالَّة عليه[34]. ومرحلة أسلوبية النصّ التي تبلورت مع الأسلوبية البنيوية والسيميائية؛ ومرحلة أسلوبية القارئ مع ميشال ريفاتير (M.Rifaterre)، ويمكن الحديث - اليوم - عن مرحلة أسلوبية السياق والمقام التي تحدَّدت معالمها مع نظرية أفعال الكلام وتصوُّرات التداوليين.

إذا ما أُتيح لنا تتبُّع نشأة الأسلوبية نجد «أن بالي كان تلميذًا لدى دي سوسير De Saussure، وأنه لحظ عدم تغطية نموذج أستاذه لكل أبعاد الظاهرة اللُّغوية، وكان من حقه أن يلحظ ذلك، فتشبيه النظام اللُّغوي بقطعة الشطرنج وَحْدَه كفيلٌ بجَعْل المبتدئ في اللعبة يلحظ أنه نسق بدون قلب، أي إنه نسق يفتقد الجانب الوجداني؛ هذا الجانب هو الذي بحث عنه Bally وأسماه الأسلوبية»[35]. وهكذا فإن عمل اللُّغويين القدماء الذين ألَّفوا في مجال مجاز القرآن وضرورة الشعر ضمن مبدأ التوسع في اللُّغة، يلتقي مع عمل الشعريين والأسلوبيين المحْدَثين في قيامه على استكشاف ما لم يستوعبه النحو وما لم تستوعبه المعايير المنطقية.

فالأسلوبية - بوصفها منهجًا نقديًّا غايته مقارَبة النصوص ضمن إطارها اللُّغوي المتمثِّل في نسيج النص، ومدىٰ تأثيره في المتلقي - تجعل من الأسلوب مادَّة للدراسة، حيث نلفي أن النص يكون حقلًا خصبًا تجد فيه الأسلوبية ضالَّتها درسًا وتطبيقًا، ومن هنا فإن الجانب اللُّغوي هو مجال الباحث الأسلوبي؛ لأن الأسلوبية تعود - بالضرورة، حسب طبيعتها - إلىٰ خواصِّ النسيج اللُّغوي، وتنبثق منه؛ فإن البحث عن بعض هذه الخواص ينبغي أن يتركَّز في الوحدات المكوِّنة للنصِّ، وكيفية بروزها وعلائقها[36].

ومن الدارسين العرب المعاصرين الذين ربطوا مطلب التجديد البلاغي بالبحث الأسلوبي يمكن الإشارة إلىٰ محمد عبد المطلب الذي راح يركِّز علىٰ البُعد الأسلوبي في البلاغة العربية، حيث يقول في مقدمة كتابه (البلاغة والأسلوبية): «وبهذا نكون مهيَّئين للنظر في مباحث البلاغة القديمة نظرة تقييم لدورها القديم وتقديم لدورها الجديد، بحيث تكون دراسة الأسلوب من خلالها قائمة علىٰ كونه فنًّا لغويًّا وأدبيًّا في وقت واحد، وبهذا يمكن التقريب بينها وبين الأسلوبية الحديثة. والذي لا نشكُّ فيه أن كثيرًا من مباحث البلاغة القديمة ما زالت محتفظة بجدَّيتها وأهميتها برغم الإساءة التي لحقت بها علىٰ المستوىٰ التنظيري في الشروح والتلخيصات. وما زال هذا الكمُّ الهائل من الملحوظات والتعاريف متاحًا للدارس، ليعيد النظر فيه مرَّة أخرىٰ علىٰ ضوء المناهج الجديدة ... ولا شك في أن كثيرًا من مباحث هذه البلاغة قد اتصل بشكل مباشر بالأسلوب وتركيبه في المعاني والبيان والبديع، حيث نجد في المعاني دراسة وافية للمقام والحال مع ربطهما بالصياغة الأدبية، كما نجد في البيان توافقًا مع دروس علم اللُّغة في مباحث الدلالة، وفي البديع تحرُّكات علىٰ مستويات مختلفة صوتية ودلالية لها أهميتها في الصياغة الأدبية»[37].

البلاغة واللسانيات (التداولية ولسانيات النصّ):

لقد عُنِي اللُّغويون والبلاغيون الغربيون في الستينيات من القرن العشرين بإعادة قراءة البلاغة وتفسيرها، واستثمار بُعْدَيْها التخييلي والتداولي، وإعادة صياغتهما في قالب جديد، يراعي التقدُّم الحاصل في جميع المجالات العلمية والتكنولوجية واللُّغوية والعلوم الإنسانية والاجتماعية ... وأفادوا إفادة مهمَّة من مباحث اللسانيات، ولا سيما من جهود رومان جاكبسون R. Jackobson اللسانية، الذي ارتبط به مصطلح الشعرية ارتباطًا وثيقًا، ذلك أنه قام «بصياغة جهود الشَّكْلانيين الروس صياغة لسانية قويَّة سهَّلت تداولها ... ومن المعلوم أن الشعريةَ قد اعتُبرت عند من سار على دربه وظيفة لسانية قصارى الاختلاف في شأنها أن يُقترَح لها نحوٌ خاصٌّ أو يُفَرَّعَ نحوها عن نحوِ اللُّغة التواصلية»[38].

وكان لجاكبسون امتدادات أتت من بعده أسهمت في ظهور ما سمِّي «لسانيات النص»؛ إذ تمَّ «تهذيب هذا التوجُّه بانتقاله من يد اللُّغويين إلى يد دارسي النصِّ الخاص، مثل رولان بارث وتودوروف وجان كوهن وغيرهم، فأعيد إلى أحضان البلاغة. وهذا هو العمل نفسه الذي أنجزه عبد القاهر الجرجاني في أعقاب اللُّغويين»[39]. ومن ناحية أخرى أكَّدت جماعة مو (Mu) أن اللسانيات البنيوية هي التي اكتشفت البلاغة الجديدة، وعلى رأسها جاكبسون الذي نبَّه إلى القيمة الإجرائية في البلاغة.

تعدُّ مرحلة الكتابة حول علم البلاغة من منظور حداثي لسانيٍّ واعٍ يتَّسم بالنضج، إحدى المحطَّتين البارزتين في عملية التأريخ للبلاغة العربية[40]، ويمثِّل هذه المرحلة حمادي صمود في دراسته (التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوُّره إلى القرن السادس - مشروع قراءة). ومقولة (مشروع القراءة) التي يقترحها الباحث محمد العمري بشأن البحث البلاغي، تفضي إلى «أن الكتابة

التقليدية في التراث تعاني من غياب إشكالية «التراث والحداثة»، في حين تتَّجه أغلب التيارات النقدية الحديثة إلى «إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسَبات المنهجية الجديدة، ولا سيما مكتسَبات اللسانيات»[41]. فاللسانيات هيَّأت أرضية خصبة وأتاحت مناخًا جدَّ ملائم لبحث البلاغة، لا سيما من حيث الإمكانات التي تمدُّها للتحليل المستوياتي للخطاب. ونريد ههنا تحليل المستوى الصوتي وتحليل المستوى الدلالي وتحليل المستوى التركيبي.

إذا كانت الدراسات البلاغية لبعض الدارسين الغربيين أمثال (دومارسيه، وفونتاني، ورولان بارت، ورومان جاكبسون، وجماعة مو) قد نظرت إلى البلاغة من زاوية نحوية أو لسانية بنيوية من خلال دراسة الصور دراسة معيارية أو وصفية، فإن بيرلمان قد درس البلاغة في ضوء رؤية حِجاجية محضة، من خلال التركيز على مكونات بلاغية ثلاثة هي: اللوغوس Logos (اللُّغة)، والإيتوس Ethos (القيم)، والباتوس Pathos (الأهواء)، وقد بين بيرلمان أن الصور البيانية هي ذات وظيفة حِجاجية، فقد غدت البلاغة إذًا علم الخطاب الجيِّد بامتياز.

ويورد العمري قول «فان دايك» Van Duck في دراسة له موسومة بـ (النصّ بنياته ووظائفه ضمن نظرية الأدب في القرن العشرين) الذي جاء فيه: «ففي حين ترتبط اللسانيات، قبل كل شيء، بدراسة الجمل (ومكوِّناتها) وتنشغل أساسًا بوضع مبادئ النحو (أو الأنحاء)، فإن علم النص يدرس **الأقوال** اللُّغوية في كلِّيتها، كما يدرس الأشكال والبِنْيات الخاصة بها، تلك التي لا يمكن وصفها بواسطة النحو. من هذه الزاوية يقترب علم النص من **البلاغة**، بل يمكن اعتباره ممثلًا معاصرًا (عصريًا) لها»[42]. فعلاقة البلاغة باللسانيات يوثِّق عُراها المستوى التركيبي بشتَّى عناصره؛ إنْ على مستوى الجملة، أو على مستوى النص، أو على مستوى الخطاب، «فواضح أن للبلاغة وشائجَ قربى مع نظرية الاتصال واللسانيات التداولية»[43].

تُعنى البلاغة عمومًا بجملة من العناصر تعدُّ من صميم اللسانيات التداولية، وتكون في الكلام والمتكلّم وهي:

- توخّي صحَّة اللُّغة وصوابها، ويشمل ذلك العناية بمستويات اللُّغة جميعها، والعناية بسلامة الألفاظ من العيوب.

- أن يكون المعنى الذي قصده المتكلِّم مطابقًا ومنسجمًا مع الألفاظ والجمل التي وظَّفها المتلفِّظ في خطابه.

- ضرورة أن يتحرَّى المتكلِّم (المتلفِّظ) الصدق.

وفضلًا عن ذلك، بوسعنا أن نضيف إلى ذلك معرفة أقدار السامعين (المتلقِّين) ومنازلهم، ومراعاة ذلك خلال التلفُّظ بالخطاب[44]. تتَّفق كل من البلاغة واللسانيات في التعويل على إمكانات اللُّغة، بوصفها أداة لممارسة الفعل على المتلقِّي في سياقات مخصوصة، ولأجل ذلك راح بعض الدارسين يسوِّي بين البلاغة والتداولية، فكلاهما يعنى بعملية التلفُّظ والعوامل المتحكِّمة فيها قبل الكلام وفي أثناء التلفُّظ بالخطاب، وإلى غاية إنجازه وتحقُّقه. وقد اتفق للبلاغة العربية هذا التقارب في المعالجة مع اللسانيات التداولية، عبر دراستها للتعابير اللُّغوية بمستوياتها المختلفة (صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية)، والبحث في العلاقات الماثلة بينها (النظم والتعليق)، وسياقات استعمالها[45].

ولعلَّ خير مَن مثَّل التيار التداولي في مسار البلاغة العربية هو أبو يعقوب السكاكي، وذلك حينما توسَّل بالمنطق في ضبط مفهومه للبلاغة؛ كي يصوغ ألفاظه بدقَّة وإحكام. والعناصر التي ركَّز عليها تحمل خصائص وسمات تؤكِّد على الطابع التداولي للبلاغة العربية، منها وضعية المتكلِّم بوصفه منتج الخطاب، ومنها أن الأساليب البلاغية التي يوظفها المتكلِّم البليغ في خطابه تعدُّ مؤشِّرات تداولية، ومنها أن للبلاغة طرفين أعلى وأسفل وبينهما مراتب يتعيَّن أن تتوفَّر على

الأدوات البلاغية التي قعَّدها السكاكي تقعيدًا منطقيًّا على غرار التشبيه والاستعارة والمجاز، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والوصل والفصل ... إلخ[46].

وقد أدَّت صِلة البلاغة باللسانيات إلى تواشجها مع حقل السيميولوجيا الذي يُعنَى بديوان العلامات التي تنتظم النص. وإذا كان بعض الدارسين مثل: رولان بارت وجماعة مو، قد فشلوا حينما بحثوا عن آليات البلاغة القديمة من أجل إغناء السيميولوجيا، فإن بيرلمان قد نجح في ذلك كلَّ النجاح، حينما بنى بلاغة حِجاجية تهدف إلى الحكم على الحُجَج والأفكار والقيم في ضوء فلسفة عقلانية، بعيدًا عن قواعد المنطق الجافَّة.

ويعني هذا أن الفكر الإنساني ليس دائمًا برهانيًّا واستدلاليًّا. فقد نجد أفكارًا غير منطقية، ولكنها تحمل في طياتها ما هو حِجاجي، كما هو حال الجمالي أو الفني الذي يقوم على وظائف حِجاجية بامتياز. ويعني هذا أن حِجاجية بيرلمان ذاتية ومتغيرة، ما دامت تركِّز على الذوات، على عكس حِجاجية بيرس (Peirce)، فهي منطقية وفلسفية تتعامل بموضوعية مع العلامات والرموز والإشارات والأيقونات التي تتخذ طابعًا ثابتًا. ومن ثَمَّ، يهتم بيرلمان بالعلاقات اللُّغوية التي تكون بين المرسل والمتلقي من خلال مراعاة القصد والمقام والسياق، سواء أكان سياقًا داخليًّا أم خارجيًّا.

وفي ما يخصُّ الحديث عن البلاغة وصلتها بلسانيات النص، ينبغي الإشارة إلى التَّقارُبِ المنهجيِّ بينهما في النَّظرة إلى النصوص بعامة؛ فبينهما نقاطُ تَلاقٍ كثيرةٌ، وفي هذا يقول سعيد حسن بحيرى: «لا يَخفى أنَّ لِمُناقشتِنا لحدودِ البلاغة وعلاقتها بعلم لغةِ النصِّ دلالةً واضحة على الصِّلة بينهما إلى الحدِّ الذي جعلَ بعض الباحثين يعدُّها السابقةَ التاريخيَّة لعلم النص»[47]، وهذا يوضح بجلاء العلاقةَ بينَهما في التعامل مع النصِّ الأدبي في شتَّى أشكاله، مما يَدْفعنا - مثل ما

يرىٰ فانديك - أنَّ «البلاغة هي السابقة التاريخيَّة لعلم النص، إذا نحن أخَذْنا في الاعتبار توجُّهَها العامَّ، المتمثِّلَ في وصف النُّصوص وتحديد وظائفها المتعدِّدة»[48].

ويَنبغي أن يُشار هنا إلىٰ أنَّ عددًا من التصوُّرات التي تبَنَّتْها لسانيَّاتُ النَّص، والنظراتُ النصِّية إنما ترتدُّ إلىٰ منجَزات في البلاغة القديمة؛ إذْ إنَّ البحث في مُمارسة الخطاب (الكلام) في البلاغة القديمة يضمُّ عددًا من النَّظرات والقواعد الخاصَّة بتنظيم نصوص محدَّدة، إذْ إنَّه قد استُخْدِمت في المباحث المتعلِّقة بترتيب الكلام وزخرفته قواعِدُ بناءٍ محدَّدة للنُّصوص؛ لأهدافٍ بلاغيَّة محدَّدة[49]. ناهيك عن أنَّ البلاغة تتوجَّه «إلىٰ المستمِع أو القارئ لتؤثِّر فيه، وتلك العلاقة ذات خصوصيَّة في البحث اللُّغوي النصِّي»[50]، وما تزال قواعِدُ بناء النصِّ البلاغيَّةُ ضروريَّةً، ولا يمكن الاستغناءُ عنها في دراسة النَّص، وبخاصَّة دراسة النصِّ الشِّعري بمفهومه الواسع. وبالتالي فإنَّ علاقة البلاغة بعلم النصِّ ذات طابع تفاعليٍّ متصل.

البلاغة الجديدة من مساعي التأصيل (الذات البلاغية) إلىٰ آفاق التجديد:

لا تزال روافد البحث البلاغي العربي تفتُر عن إمكانات طموحة مهما تطاول الأمد بالتراث؛ وعلىٰ أساس من ذلك فإن الدعوة إلىٰ التجديد في البلاغة ليستْ شيئًا حديثًا مبتدعًا، بل منذ القرن الثالث الهجري دعا ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ) إلىٰ التجديد قائلًا: «إنَّ الله لَم يَقصر العلم والشعر والبلاغة علىٰ زمنٍ دون زمنٍ، ولا خصَّ به قومًا دون قومٍ، بل جعَل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كلِّ دهْر، وجعَل كلَّ قديمٍ حديثًا في عصره»[51]. ويصدِّق واقع البحث البلاغي الراهن هذا المنظور الاستشرافي الثاقب والواسع الأفق الذي يقرُّ بمشروعية مقولة التجديد.

وفي ذلك أيضًا يقول حازم القرطاجنِّي: «كيف يظنُّ إنسانٌ أنَّ صناعة

البلاغة يتأتَّى تحصيلُها في الزَّمن القريب، وهي البحر الذي لم يَصِل أحدٌ إلى نهايته مع استنفاد الأعمار؟!»[52]. ما يُفهَم من هذا الكلام هو أن حقل البلاغة العربية يظلُّ خصبًا مهمًّا بَجَعَتْهِ الدراسات والتنظيرات، وتقاطعت معه سائر العلوم، ونقدِّر أن ذلك من أحَد أسرار اللُّغة العربية التي لها قابلية مواكبة معارف جميع العصور والتفاعل معها أخذًا وعطاءً.

ثمَّة جهود عربية قيِّمة حديثة ومعاصرة حاولت ولا تزال عاكِفةً على بعث روح جديدة في علم البلاغة بما يتمشى وأدوات العصر المعرفية، ومع ذلك يبقى الطابع التعليمي الذي توارثه هؤلاء المُحْدَثون عن البلاغيين المتأخِّرين الذين جاؤوا بعد القرن الخامس الهجري، مِن مَن أُدْرِجَت مصنَّفاتهم ضمن المرحلة التعليمية، فعُدَّ اختزال البُعدين النظري والمعرفي للبلاغة إلى علوم ثلاثة هي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع - السِّمة الغالبة لتلك الجهود. ومن بواكير المصنَّفات البلاغية الأولى في العصر الحديث نشير إلى كتاب (دفاع عن البلاغة) لأحمد حسن الزيات (ت1388هـ)، فضلًا عن كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعي (ت1356هـ).

وأمر بدهيٌّ في ما نُقَدِّر أن يتقهقر وضع البلاغة العربية لدى المُحْدَثين إلى تلك الحال؛ لانحسار الروح الأدبية وتراجع الاهتمام باللُّغة العربية الذي عمَّقته - فضلًا عن ذلك الاختزال المصطبغ بصبغة المنطق الذي غيَّب جوهر البحث البلاغي - عوامل تاريخية وحضارية وسوسيوثقافية كالاستعمار والتخلُّف والتبعية للغرب الإمبريالي والشرق الشمولي، و(الاستقالة) الفكرية العربية الإسلامية التي منحت المستشرقين مقاليد التراث يتصرَّفون فيه كيف ما شاؤوا ويوجِّهون مسائله حيث ما أرادوا.

ومع ذلك لا يمكن التغاضي عن قيمة الجانب التأريخي الواصف لعدد من الدارسين المعاصِرين والذي نقدِّر أنه كان بمثابة أوَّل خطوات عملية تجديد

البلاغة العربية التي أضحت قناعة تتخلّق شيئًا فشيئًا في الأفق، ونعني ههنا جهود باحثين أمثال شوقي ضيف (ت2005م) في كتابه الموسوم بـ (البلاغة تطوُّر وتاريخ) وكان قد ألّفه عام 1965، فقد وسَّع محاضراته التي ألقاها بكلية الآداب بجامعة بيروت على طلبة قسم اللُّغة العربية وآدابها حول تاريخ البلاغة وتطوُّرها، الذي تمثَّله «في أربع مراحل، هي: النشأة، والنمو، والازدهار، والذُّبول؛ فقد بدأت في شكل ملحوظات بسيطة كان ينثرها العرب في الجاهلية. وأخذت هذه الملحوظات تكثر مع رقيّ الحياة العقلية العربية بعد الإسلام. ولمستها في العصر العباسي عصا الحضارة والثقافات السحرية، فإذا هي تعمَّق، وإذا طوائف من الشعراء والكتّاب واللُّغويين والمتكلّمين تدعمها دعمًا، ونفذ الأخيرون إلى وضع أصولها الأولى بعقولهم الثاقبة اللطيفة»[53].

لقد سعى شوقي ضيف إلى ربط تأريخه للبلاغة العربية بتاريخ الأدب العربي عبر العصور، نظرًا للصلة الوثيقة القائمة بينهما من حيث مسارُهما التطوُّري حتى انتهيا إلى ما وصفه بالجمود والتعقيد والجفاف والتكرار المملّ[54]، كما توقَّف بدقَّة عند جهود أعلامها النابهين، مبرزًا نواحيَ التأثير والتأثُّر بين شتى البلاغيين ومصنَّفاتهم ضمن الأصول والفروع.

ويشيد محمد العمري بقيمة هذا الكتاب قائلًا: «إنه أحد الجسور البلاغية التي ينبغي إعادة صياغتها اليوم، وتكميلها أو حتى ترميمها. وبهذه القيمة المصادرية التمهيدية المدخلية يمتدُّ فينا هذا الكتاب وهذه الكتابة، ولكن أكثرنا يَستهلكُها سرًّا، وينقصها جهرًا، والدليل على ذلك عدد الطبعات والمبيعات...»[55].

يشير شوقي ضيف في تعقيب وجيز ذيَّل به كتابه إلى مقارنة مقتضَبة خاطفة بين مباحث البلاغة العربية وبين نظيرتها الغربية، حيث إن «الغربيِّين عُنوا في

بلاغتهم بدراسة الأساليب والفنون الأدبية، بينما لم يكد يُعنىٰ بهذه الجوانب أسلافُنا؛ إذ صبُّوا عنايتهم علىٰ الكلمة والجملة والصورة، وفي رأينا أن ذلك يرجع من بعض الوجوه إلىٰ أنهم قصدوا بقواعدهم البلاغية تعليل بلاغة العبارة القرآنية وما تحمل من خصائص تعبيرية وصور بيانية، واستوفَوْا تصوير ذلك تصويرًا دقيقًا رائعًا. وأيضًا من الأسباب التي دفعتهم في هذا الاتجاه طبيعة شعرنا القديم؛ إذ كان في جملته وجدانيًّا غنائيًّا يجري في أسلوب عام واحد، سواء في معانيه أو صوره وأخيلته وصِيغ تعبيره»[56]. وكأننا به من خلال هذا التعقيب يوجّه دعوة إلىٰ الباحثين كي يعيدوا قراءة التراث البلاغي لدىٰ القدماء، ويعيدوا النظر في أدواتهم وآلياتهم الإجرائية في ضوء الإفادة من منجَزات الغربيين ومنظورهم الحديث.

ويمكن الإشارة أيضًا ضمن الجهود التأريخية إلىٰ عبد العزيز عتيق صاحب كتابي: (تاريخ البلاغة العربية)، و (علوم البلاغة: المعاني - البيان - البديع)، ولئن ميَّز كتابه الأوَل توخِّي العرض التاريخي الموجَز لطبيعته البيداغوجية؛ إذ إنه عبارة عن محاضرات حول البلاغة العربية، فإن سمة الكتاب الثاني الطابع التطبيقي التعليمي، الذي لم يخلُ منهجه من تأثر ببلاغة المتأخِّرين المعياريين مِن مَن جاؤوا بعد القرن الخامس الهجري، فكانت إجراءات التفريع والتقسيم المنطقي والتقعيد أبرز أولويات الكتاب الذي يؤخذ عليه إغفال الجانبين التنظيري العلمي والجمالي الفني.

ويُعدّ أمين الخولي مؤلِّف كتاب (فنّ القول) من أوائل الذين انتبهوا إلىٰ قضية تجديد البلاغة العربية، ويشير إلىٰ الظروف التي جعلته يتبنَّىٰ هاجس التجديد قائلًا: «وذهبت بهذا الشعور أحدِّث تلاميذي بمدرسة القضاء عن التجديد الأدبي، حديث المؤمن به، الذي يراه ناموس الوجود، كما يرىٰ أن في

القديم ما لا يزال صالحًا للتقوِّي به والبناء عليه. ثم شاءت الأقدار أن أدع مدرسة القضاء إلى كلِّية الآداب بجامعة فؤاد، لأمضي في هذا الدرس الأدبي، فدخلت ميدان التجديد الأول، على خبرة به، ورأي ثابت عنه، وخطَّة بيِّنة عنه، أدرت عليها عملي في درس البلاغة وسواها»[57]. فقد كان الخولي منذ عودته من أوروبا عام 1929 جدَّ متأثر بأجواء تلك المعركة الأدبية التي احتدمت بين أنصار القديم والجديد، والتي وجد فيها مرتعًا خصبًا لإعلان موقفه التجديدي للبلاغة العربية.

وقد كان من دوافع ذلك أيضًا أن الضرورة العملية ألجأت طلبة الحقوق بمصر آنذاك إلى تلقِّي شيء من درس الأدب بكلية الآداب ما يمكِّنهم من تعزيز المهارة الكلامية لديهم وفق متطلَّبات الاشتغال ضمن مجال القضاء والمحاماة، وحذْق تقنيات الخطاب والحِجاج، بمنأى عن المنحى التنظيري، فعُدَّ ذلك أوَّل ما ألزم أمين الخولي إلى الخروج عن المألوف في الدرس البلاغي، وصرف عنايته عن التعويل على المصنَّفات البلاغية القديمة. وتأدَّى عن ذلك أن عمَّم رؤيته العملية الجديدة لدراسة البلاغة تلك على طلبة قسم اللُّغة العربية؛ لما لمسه فيها من أثر إيجابي[58]. واللافت للنظر أنه التقى في دافعه ذاك مع بيرلمان رائد التجديد البلاغي لدى البلاغيين حينما جعل من الخطاب القضائي مجالًا لتطبيقاته بحكم اشتغاله بهذا المجال[59].

ويتحدَّث صلاح فضل في تصديره لكتاب (فن القول) عن مطلب التجديد لدى هذا الدارس قائلًا: «وإذا كان أمين الخولي قد قدَّم مشروعه في تجديد البلاغة والأدب في ظل انتصار المنهج التاريخي عالميًّا، فإنه قد دعا بقوة إلى التخلُّص من سيطرة الفلسفة والمنطق على مباحث البلاغة والنقد، ويقصد بها الفلسفة الصورية الميتافيزيقية، وليس فلسفة العلوم أو الفنون، كما ركَّز على

أهمية ربط البلاغة والأدب بالحياة، بتعميق الجانب الاجتماعي في بحثهما وتنمية الحسِّ الفنِّي في تناولهما...»[60]. من الواضح أن هذا الكلام يعيد النظر في التوجيه الفلسفي الذي ينبغي أن يؤطِّر الدرس البلاغي حسب الخولي من جهة، ويشير من جهة أخرىٰ إلىٰ ضرورة انفتاح البلاغة علىٰ المحيط والواقع، وهو ما يتوافق إلىٰ حدٍّ كبير مع تصوُّر البلاغة الجديدة لدىٰ الغربيين التي تواشجت مع قطاعات جدٍّ حيوية علىٰ غرار القضاء والسياسة والإعلام والإشهار ونحوها.

لقد قدَّم الخولي موقفه التجديدي انطلاقًا من استقراء واقع الدرس البلاغي لدىٰ القدماء ونقده، ويعدُّه مطلبًا ميسورًا غير شاقّ في بحث البلاغة، قياسًا إلىٰ سائر العلوم العربية، وذلك عائد «لمرونة في فطرتها، وقابلية في منهجها، الذي يعتمد علىٰ الذوق والوجدان، ويصل أبحاثها بالفن والجمال، مهما تُخْفِ ذلك اتجاهات ضالَّة وأعمال خاطئة»[61]. بيد أن ما يُلحَظ بشأن المنظور الذي تمثَّله أنه يتسم بالطابع التعليمي؛ إذ إنه يركِّز علىٰ ما ينبغي اعتماده من مناهج تدريس البلاغة للنشء وما طبيعة الكفاءة التي يفترَض أن تتوافر في مدرِّس البلاغة والمحتوىٰ المعرفي للكتاب من ناحية، ويتسم أيضًا بالرغبة في ربط البلاغة بشتىٰ مناحي الحياة والمحيط الاجتماعي من ناحية أخرىٰ. ولم يفوِّت الخولي الفرصة للإشارة إلىٰ إشكالية الفصحىٰ والعامية التي تعدُّ تحدِّيًا للغة العربية وأحد أبرز معاركها التي لا تزال قائمة حتىٰ الوقت الحاضر.

ومن الخطىٰ التي صدرت عن وعي بضرورة انعطاف الدرس البلاغي صوب التجديد، يمكن لنا أن نشير إلىٰ رجاء عيد، وذلك في مؤلَّفه (فلسفة البلاغة بين التقنية والتطوُّر)، حيث يتصوَّر أنه حان الوقت للتفكير في الأمور عوض ترديد ما قاله الآخرون - ويقصد بهم القدماء - وكأنه كلمة الحسم، ذلك أن الذوق الفني والحكم الأدبي من المسائل المعرضة للتغيُّر والتحوُّل من عصر

لآخر، إن لم يكن من فرد إلى فرد، ولا ينبغي أن يُفهم من ذلك، أنه يريد التهوين من قيمة الدراسات البلاغية المتوارثة، بل إنه يقصد ضرورة الكفِّ عن اجترار ما قيل سابقًا، وبالتالي ضرورة التنقيب حول ذلك الذي قيل؛ كي نعي حقيقته والعلل التي اقتضته، ومدى تماشيه مع الغاية من درس البلاغة[62]. ونجده يصدر في بحثه لها عن الإشكالية الآتية: «هل يظلُّ الحكم البلاغي الذي قيل في القرون الأولى للهجرة يظلُّ هو الحكم الذي نتوارث ذوقه ونتعبَّد تفسيره؟»[63].

ويلحُّ مطلب التجديد لدى رجاء عيد انطلاقًا من ضرورة الاحتكام إلى الذوق الفنِّي الخاص بالزمن الذي نعيش، ويقرِّر ذلك قائلًا: «فإن من حقِّنا أن نتصوَّر البلاغة كما نفهمها نحن في عصرنا؛ لأننا أبناء العصر والذين نتعامل مع الكلمة على حسب تياراتنا الثقافية وغيرها من ما تزخر به أمواج العصر. وليس من حقِّ الأقدمين أن يطلُّوا علينا من قبورهم ليفرضوا ذوق عصرهم...» [64]. فجليٌّ للعيان من هذا الكلام مطلب ضرورة التجاوز والتجديد، وذلك من منطلق أن مسألة الذائقة أمر نسبي متحوِّل لا مطلَق ثابت؛ لأنها تصطبغ بألوان كل عصر وتتشرَّب ثقافته.

ومن ثَمَّ راح هذا الباحث يحلِّل بعين نقدية كثيرًا من قضايا البلاغة العربية القديمة بأدوات إجرائية مستقاة من روح البحث الحديث المنفتح الأفق، فكان همُّه الشاغل أن يقف عند فلسفة المباحث البلاغية، راصدًا بنية التفكير المتصلة بالمعاني والبيان والبديع، محاولًا ترميم ما طاله البِلى والاهتراء؛ ففي ما يتعلَّق بجانب علم المعاني نلفيه على سبيل التمثيل يسعى لتقديم مقاربة اجتهادية بشأن مبحث الحذف ووقعه البلاغي يمكن أن نتوسَّم فيها معالم التجديد؛ إذ يذهب إلى أنه لا يسوغ لاعتبارات فنية حصْر أغراض الحذف ومواضعه؛ لأنها حسب ما يرى ليست تقعيدًا منطقيًّا مقنَّنًا، وإنما هي مواقف فنية ندركها من الموقف كلِّه؛ إذ قد توجد هناك أغراض فنية أعمق وأدقُّ وألطف

مما أومأ إليه البلاغيون القدامى، ومن ثَمَّ ينبغي تحسُّس الوقع الجمالي لنسق التركيب من عمق العمل نفسه، ومن بنيته الفنية الخاصة به[65].

ويثور على التفسير الذي لطالما ردَّده البلاغيون بشأن حذف المسند إليه، ومفاده أن مسوِّغه يكون إما لمجرَّد الاختصار والاحتراز عن العبث، وإما لضيق المقام، وإما التخييل؛ ذلك أن في تركه تعويلًا على شهادة العقل، وفي ذكره تعويلًا على شهادة اللفظ، وإما لاختبار تنبُّه السامع له عند القرينة[66]، ويستشهدون له بالبيت الآتي:

قـالَ لي كيـفَ أنـتَ؟ قلـتُ عليـلُ سَـهَـرٌ دائـمٌ وحُـزنٌ طَـويـلُ

إنه يَعدُّ أن هذا التفسير غير مُقْنِع، مما حدا به لأن يستبعد تلك المسوِّغات، ذاهبًا إلى أن «إحساس الشاعر بالعلَّة مثلًا قد يكون تضخَّم حتى شمل مساحة عريضة من ذاته، فأصبح ذكر ذاته لا قيمة له؛ لأنها منسحقة تحت لفظ «عليل»، أو كأن قول مخاطبه له: كيف أنت؟ تفجير لألمه الذي يكتمه، وسرعان ما وجد متنفَّسًا في بيان علَّته التي امَّحت أمامها ذاته. والأمر لا يحتاج لإعمال أيِّ تخييل لندرك أنه يقصد: (أنا عليل)، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لمَ لا يكون ذلك نسقًا لغويًّا طبيعيًّا ونوعًا من الأداء اللُّغوي في اللُّغة نفسها»[67]. وتوجيه تأويلي كهذا ينمُّ عن اقتدار معرفي في التماس فهم حصيف يجمع بين التوجيه النفسي والتوجيه الأسلوبي يتناغم وآفاق البحث الحديث.

وفي ما يتصل بعلم البيان يصوِّب سهام النقد إلى طريقة فهم القدامى لشتى مباحثه كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، هذه الأخيرة التي أخذ على القدامى فهمهم القاصر لحقيقتها ووظائفها اللُّغوية والجمالية والإدراكية؛ إذ يقول: «يتضح مدى التمحُّلات وسَرَفُ التشقيقات في ما يحشُده السكاكي من مسمَّيات تلحق بمفهوم الكناية، فهي عرضية بمعنى التعريض كما كان مسمَّاها عند العسكري، وهي تلويح، وهي رمز، وهي إيماء وإشارة، وهي تسميات تخضع لتفرقة واهمة

وغير مقنعة، ويتضح كذلك سوء فهم مصطلح الرمز، ولا نعني بذلك مصطلحه المعاصر، فنحن لا نطالب السكاكي بدلالات مصطلح له دلالته الشديدة الحداثة، وإنما... سوء المصطلحات وتعدُّدها ودورانها في مصفوفات لا قيمة لها»[68]. ومِن ما ثَلَبه على أولئك القدامى سوءُ وَعْيهم لبلاغة الكناية واستبعادهم للحسِّ الفني، على نحو تعامل السكاكي مع الأبيات الآتية:

سَألْتُ النَّدَى والجُودَ: ما لي أراكُما ... تَبدَّلتُما ذُلًّا بِعِزٍّ مؤبَّدِ
وما بالُ رُكْنِ المَجْدِ أَمْسَى مُهدَّمًا ... فَقالا: أُصِبْنا بِابْنِ يَحْيَى محمّدِ
فقُلتُ: فَلَا مُتُّما عِنْدَ موتِهِ ... فقَدْ كُنتُما عَبْدَيْهِ في كُلِّ مَشْهدِ
فقالا: أَقَمْنا كي نُعَزَّى بفَقْدِهِ ... مَسافَةَ يَوْمٍ ثَمَّ نَتْلوهُ في غَدِ

فقد أغفل السكّاكي - في ما لحظه رجاء عيد - ما تضمَّنته الأبيات من تشخيص فني ومن محاورات افتراضية وما بها من شجًى درامي يكون فيه البيت الأخير أشبَه بالمنظر الأخير في مَسْرَحة التحاور الشعري، وأقرب إلى إسدال الستار على تناوح الفقد، مكتفيًا بالإشارة إلى مجرَّد ما تضمَّنته الأبيات من معنى جود ابن يحيى ومجده[69].

ويمضي رجاء عيد قائلًا: «قد تتداخل الإيحاءات الرامزة في العمل الفني جميعه، ويكون من العبث الوقوف باسترخاء عند كل بيت لنخوض في أحشائه لنقبض على دلالة جزئية تكون هي «الكناية»، وإنما تتآزر كلُّ هذه الجزئيات لينمو من خلالها حصاد فني جديد. ونستطيع ونحن منطلقون في رحلة القصيدة استكشاف تلك المدائن المجهولة التي تنبثق أمامنا لحظة استبصار فني حادٍّ»[70]. تشفّ هذه الوقفة النقدية عن مدى إلْحاح هذا الدارس على ضرورة تبني المنظور الحديث لفهم الصورة البيانية ضمن نطاق أوسع لعلَّه ما صار يُعرف بـ«الصورة الفنية».

في حين نجده مثلًا ضمن مسائل البديع يوجِّه نقدًا لموقف الباقلّاني بشأن السجع قائلا: «يستمرُّ الباقلّاني في ادِّعائه الواهي قائلًا: ولو جاز أن يقولوا سجع معجِز، لجاز أن يقولوا: شعر معجِز؛ كيف والسجع مِن ما كان يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حُجَّة من نفي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوَّات، وليس كذلك الشعر. ويزعم سببًا فنيًّا متكلَّفًا يقوم على فرضية خاطئة، وهي أن السجع يكون المعنى فيه تابعًا للفظ، وما ذلك صوره في القرآن، مع أنه ليس باللازم أن يكون السجع يخضع المعنى فيه للفظ، فذلك صورة رديئة للسجع مرفوضة كما هو معروف...»[71]. فقد بدا رجاء عيد في معظم تحليلاته البلاغية منساقًا وراء هاجس نقدي اقتضته نزعة التجديد التي لا تتجاوز عنده بالضرورة موضوعات البلاغة، وإنما آليات تعليلها وفهمها والموقف منها، وهو ما انضوى تحت مظلَّة ما أطلق عليه فلسفة البلاغة.

أما مصطفى الصاوي الجويني فيرتئي تقديم موقفه من قضية التجديد البلاغي انطلاقًا من تحسّس مفهوم الأسلوب لدى أبي هلال العسكري محاولًا مقاربته بتصوُّر التشكيليين، على أساس أن هناك ثلاثة عناصر تحكم الأسلوب حسبهم وهي: طبيعة المادة وأغراضها وذاتية الفنان. وتُعَدُّ اللُّغة عند الأدباء (اللفظ والمعنى) طبيعة المادة، وبالنسبة للعسكري فإن المادة الأساسية تتمثَّل في اللفظ. ويحدِّثنا عن أغراض تلك المادة حينما يحصر الشعراء - في ما نقله عن قدامة بن جعفر (ت370هـ) - في أربعة أقسام حسب المعاني وهي: مديح، ونسيب، ووصف، وهجاء. بينما أشار إلى ذاتية الفنان حينما حدَّثنا عن بِشْر بن المعتمر (ت110هـ) وصحيفته التي بثَّها بذور نظرية الإبداع الأدبي، ثم إن الجويني ينتبه إلى أن العسكري قد أضاف أمرًا أغفله التشكيليون وهو عنصر التلقِّي[72].

ونتحسَّس روح التجديد لدى الجويني أيضًا حينما يلتفت إلى مباحث البيان؛ إذ تلوح للناظر أفق الطرح الأدبي الطموح المنفتح على فلسفة الجمال

ومقولات النقد الحديث وعلم النفس، فنُلْفيه ضمن مبحث خصَّصه لدراسة البلاغة من الوجهة النفسية من خلال وعي الاستعارة، يقول: «إن من أعظم ما في الأسلوب من سحر هو استخدامه للغة المجازية واستعماله للتشبيهات المناسبة. إن الاستمتاع بالمثل والمجاز، وبالخرافة والاستعارة تَسِم العقل الحديث كما وسمت العقل البدائي سواء بسواء. وهي من الجانب النفساني استبدال صورة أو معنىً أو موقف محلَّ آخر. وأحيانًا يجري الاستبدال ضمنًا خلال قصَّة، ومن ثَمَّة يكون لدينا المجاز...»[73].

ويتوخَّىٰ هذا الدارس إعادة الاعتبار لعنصر الذائقة الفنية وأثره الجمالي في تمثُّل البلاغة الذي تبوَّأ موقعًا مكينًا في جهود ما كان يُعرَف قديمًا بـ«المدرسة الأدبية»، ذلك ما يشفُّ عنه قوله: «إن الدرس الذوقي للبلاغة أمر له خطره، وإن لم يكن للمدرِّس إحساس متوقِّد بجمال النصوص يشعُّ حرارته علىٰ فهم وذوق تلاميذه يصبح الدرس البلاغي باردًا جامدًا يتوقَّف عند استيعاب المصطلح البلاغي، وإدارة الظهر للنصِّ الأدبي وهذا - من أسف - هو الموقف اليوم من الدرس البلاغي، نشكو ندرة من يحسُّ جمال النصِّ، ثم العزوف من الأبناء عن البلاغة، وإذا كانت للبلاغة من وظيفة، فهي في رأيي الإمتاع والإقناع، وترقيق الوجدان، وتهذيب السلوك»[74].

ولعلَّ الباحث المغربي محمد العمري مؤلِّف كتاب (البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)، يكون - حسب تصورُنا - من أكثر هؤلاء الباحثين باعًا في دفع دواليب البحث البلاغي العربي نحو مطلب التجديد، بالنظر إلىٰ رؤيته الثاقبة وموقفه النقدي الحصيف موضوعًا ومنهجًا، واستقصائه المعمَّق لشتىٰ مسارات هذا الحقل، في إطار تقاطعاته المفصلية مع سائر العلوم والمعارف كعلم الكلام والفلسفة والمنطق.

كشف العمري في خطبة كتابه ذاك أن منجَزه موجَّه إلى جميع شرائح القراء «من التلميذ في الثانوية العامة إلى الطالب في الدراسات العليا المتخصصة، إلى اللساني إلى المنطقي والفيلسوف، إلى المحامي المجتهد، فضلًا عن الباحث المتخصص في البلاغة والأسلوبية، فهو يستهدف كلَّ مَن يعاني إشكالات تحليل الخطاب من مراصده المتعددة. لذلك تعمد ألا يرضي طائفة على حساب أخرى، محاولًا الجمع بين البعدين البيداغوجي والتأويلي»[75]؛ ففي ما يرتبط بالبعد البيداغوجي فإنه يصبو إلى «الخروج من حلقة الأمثلة المقطوعة عن السياق التي لم تزدنا إلا تشويشًا واختلافًا في فهم الفكر البلاغي العربي وتقويمه». ويتَّضح من ذلك أنه يناقش فكرة الاختزال الذي هيمن طويلًا على الدرس البلاغي. في حين أن البُعد «التأويلي يسهم في ربط المشاريع والمنجَزات والكشف عن خلفياتها (أو تفسيرها)، واستكشاف مساراتها الكبرى... ويصل بنا هذا البُعد التأويلي التركيبي إلى الاقتناع بأن البلاغة العربية أوسَع بكثير من هذا اللباس الضيِّق الذي حَشَرْناها فيه حين حكَّمْنا قراءة واحدة هي قراءة السكاكي ثم المراغي»[76].

كما أثار هذا الباحث في منجَزه مجموعة من النقاط تتصل بمطلب التجديد، وأبدى تحمُّسه لفهم البلاغة فهمًا مغايرًا يمزج بين تثمير التصوُّر اللساني واستغلال نظرية التلقِّي في بُعدها التاريخي، وقد بيَّن أن مشروع القراءة هذا من شأنه أن تترتَّب عنه بعض المكاسب يمكن إيرادها على النحو الآتي:

أولًا: أنها تتيح إمكانية مراجعة المفهوم السائد للبلاغة؛ إذ يعيد هذا التصوُّر «إلى هذا العلم الأرض التي استُلبت منه فحولته من إمبراطورية مترامية الأطراف إلى مجرَّد إمارة محصورة داخل أسوار منيعة متمنعة»[77]، فالتصوُّر القديم الذي لا يزال قائمًا هو تصوُّر السكاكي وقراءته للتراث، وهي قراءة

مشروعة ولكنها مشروطة بظروف. ويتعيَّن إذًا أن يُدرس (البيان، والمعاني، والبديع) بوصفه رؤية لمدرسة لا صيغة كلية نهائية للبلاغة العربية. وهكذا يغدو بالإمكان أن يقدم بجانب تصور السكاكي مشروع حازم القرطاجني الذي يفتح البلاغة على النقد الأدبي، وعلى كل المقومات الفلسفية واللسانية والشعرية التي تَعْضُده، وذلك تجلٍّ آخر من تجلِّيات التلاقح المعرفي.

ثانيًا: تسمح تلك القراءة «بنقل الرصيد البلاغي من وضعية البنية التاريخية الجامدة المرتبطة بعصرها إلى حلقة من دينامية الأسئلة الإنسانية التي يتصل أولُها بآخرها تجاورًا وتعارضًا وتقابلًا: حيث نجد البلاغة في تجاذب مع الشعر والنحو والمنطق: انزياحٌ مستمر، ونزوع إلى الانبناء ككيان قائم الذات. ومشروعَا السكاكي وحازم كفيلانِ بهذه المهمة»[78]؛ أي: دفع عجلة البحث البلاغي من حالة رَتابةِ التوصيف التاريخي الجامد إلى انعتاق نحو أفق دينامي مرن تتفاعل فيه عدَّة أنساق معرفية.

ثالثًا: وتسمح أيضًا بإعادة توثيق الصِّلة ما بين «البلاغة» وتاريخ الأدب والنقد؛ أي: بالحركة الدائرة حول النصوص الحيَّة وعملية الإنتاج. لذلك ليس بدعًا أن يطال الجمود البلاغة بعد أن صارت تُدرَّس بمنأى عن تاريخ الشعر وما يطرأ عليه من تطوُّرات شكليَّة، وتُدرَّس بمنأًى عن المعارك النقدية، وتطوُّر مفاهيم النقد، والحال أنها في ارتباط وثيق بهذه المجالات، ارتباطِ تداخلٍ لا تقاربٍ[79].

ولا يزال العطاء المعرفي لدى العمري يفترّ لنا عن آراء وأفكار تعضد مسارات التجديد، ففي سياق محاولة قراءة تاريخ البلاغة العربية، يتجاذبنا أمران: جاذبية النصوص القديمة، وجاذبية الأدوات التي نتوسَّل بها لقراءة تلك النصوص التراثية؛ إذ يرى هذا الباحث «أنه لا كتابة خارج العصر... وما تغيرت المعطيات، إلا ويلزم على الباحثين أن يعيدوا قراءة التراث وتأويله، ولا سيما ما

كان منه بعيدًا وما التحق به، ليس لإسقاطه على الحاضر والاستغناء عنه، ولكن للتواصل معه وإعادة تأويله حتى لا يبقى عائقًا أو بديلًا للحاضر... ومن الأكيد أن غياب الإمكانات العلمية والإبستمولوجية الآنية، تجعل المؤرِّخ القارئ عاجزًا عن التخلُّص من إسار ذلك الماضي ومن إعادة تأويله، فيكتفي باستجلابه أو نفيه على الإطلاق»[80].

فيحدو هذا الباحث وعيٌ أصيلٌ بضرورة فتح مسارات جديدة ضمن مشاريع أُخر؛ تتصل ببلاغة الإقناع والحِجاج لا يسع المقام للتبسُّط فيها؛ ترنو لأن ترسُّخ المعطى البلاغي العربي ضمن دائرة البلاغة العالمية، وفي هذا الصدد راح يوصي بأنه في ظلِّ الواقع الراهن «إذا توضَّحت المنجَزات البلاغية العربية، بقدرٍ كافٍ، أن نحاول فتح موقع لنا في تاريخ البلاغة العالمية؛ أن نخرج من ذلك التاريخ الذي يقفز من أرسطو إلى الشكلانيين الروس أو من البلاغة العربية القديمة إلى البلاغة العربية الحديثة»[81]. ولعلَّ سرَّ نضج الطرح البلاغي لدى العمري يرتدُّ إلى حسِّه النقدي التحليلي للتمثُّلات البلاغية القائمة من جهة، وإلى منهجه الذي استدعى البعدين التأويلي والتعليمي معًا من جهة ثانية، وإلى حرصه على تشمير معطيات شتى الأنساق المعرفية الأخرى كالمنطق والفلسفة والأسلوبية والحِجاج وغيرها من جهة ثالثة، وما دام اجتهاده في مضمار التحديد لا يزال يتخلَّق من خلال كتاباته وأبحاثه العلمية التي تطلُّ على القراء بين الفينة والأخرى نرتئي ألا نقدم على عرضها لئلا نصدر بشأنها حكمًا متسرِّعًا.

ومن أبرز ما أُلِّف في حقل البلاغة الجديدة دراسة موسومة بـ (في بلاغة الخطاب الإقناعي)، صدرت في عام 1985، وأفردت لدراسة بنية الخطابة العربية إبَّان القرن الأوَّل الهجري وبُعْدها الحِجاجي، وبادِ فيها بوضوح استلهامه لمفاهيم هذا الحقل، ثم أعقبها بكتابه (البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول)، الذي

صدر عام 2005، وحاول فيه تحسُّس حدود التداخل بين المنحى الجمالي (الشعرية) والمنحى الإقناعي (الخطابية) انطلاقًا من مفهومه للبلاغة على أنها «علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير أو الإقناع أو هما معًا، إيهامًا أو تصديقًا»[82]، وبيان ذلك أن البلاغة وصف يجري على النثر بوصفه صدقًا يحتمل الكذب، كما يُطلق على الشعر بوصفه كذبًا يحتمل الصدق.

ولكن الحقَّ يُقَال أن همَّ الاشتغال بمطلب التجديد البلاغي العربي إبَّان العصرين الحديث والمعاصر لم يكن منحصرًا فقط عند مَن ذكرنا من أعلام، بل وُجِد دارسون آخرون لا يقلُّون شأنًا عنهم، ونقصد ههنا أحمد حسن الزيات وأحمد الشايب وعبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف وحلمي مرزوق ويوسف أبو العدوس ومحمد الولي ومحمد مشبال، ناهيك عن بعض الأسلوبيين نحو عبد السلام المسَدِّي وصلاح فضل ومنذر عياشي وغيرهم، ولا يزال مجال البحث مُشْرَعًا على الباحثين من خلال الرسائل العلمية الأكاديمية التي لا نعدم أن يكون من ضمنها ما يحقِّق الوثبة الجادَّة، والمستفيد من ذلك كلِّه حتمًا هو اللُّغة العربية أداة البلاغة ووعاءها الذي لا يضيق عن المعارف على مرِّ العصور.

خاتمة البحث:

عنَّ لنا بعد هذا العرض المتشعِّب لمسارات الدرس البلاغي خلال العصرين الحديث والمعاصر الذي توخَّينا تقديمه في إيجاز مقتضب؛ خشية أن نحيد عن الغاية التي ترسَّمناها، أو أن نمضي دون مكاشفة الإشكالية التي أَثَرْناها؛ أقول: عنَّ لنا أن البلاغة العربية بشقَّيها الفني والعلمي اجتمع لها من أسباب القوَّة والحياة قديمًا ما يجعلها قادرة على فرض وجودها راهنًا بل ومستقبلًا أيضًا، والتماهي مع أدوات العصر المعرفية والمنهجية في سياق فاعلية التلاقح المعرفي التي أضْحَت امتدادًا لما كان قائمًا في التراث.

ولما كان البحث البلاغي بِمُكْنته في شتَّىٰ أطوار نشأته ونموِّه الاستمدادُ من علم النحو وعلم الكلام والفلسفة وعلم الأصول وغيرها من جهة، وإغناء حقول أخرىٰ كالنقد الأدبي وعلم الدلالة والتفسير وعلوم القرآن من جهة أخرىٰ، أفلا يؤهِّله ذلك لأن يثبت لما تطرحه مختلف المدارس والحقول المعرفية الحديثة كاللسانيات والحِجاج والأسلوبية والنقد والسميولوجيا من نظريات، وأن يتماهىٰ معها أخذًا وعطاءً؟ بالقطع الجواب سيكون بالإيجاب ليس من منطلق ذاتي، بل تأسيسًا علىٰ حكم موضوعي صرف تعضُده الشواهد والأدلَّة بما لا يدع مجالًا للريب.

فالتجديد البلاغي إذًا لم يُطرَح بوصفه مَطلَبًا حيويًّا دفعة واحدة وبشكل نهائي كلِّي محسوم، وإنما كان لزامًا أن يقطع أشواطًا ومراحل ويتخمَّر في قراءات واجتهادات ونظرات متنوِّعة، تراوحت بين التوصيف التاريخي والتحليل النقدي والاجتهاد المنهجي، وفق ما تقتضيه وظيفة البلاغة في العصرين الحديث والمعاصر علىٰ المستوىٰ الحِجاجي والإقناعي والتأثيري والجمالي. ولم يَعُد درسها مقتصرًا علىٰ فنون الأدب فحسب، بل تخطَّاه إلىٰ عدَّة ميادين منها مجال الإعلام والإشهار والدعاية والقضاء والسياسة وغيرها... والبلاغة العربية في جميع ذلك حاضرة بثقلها النظري والتطبيقي المستقىٰ من عمق التراث.

لقد ترنَّحت محاولات المعاصرين ما بين مساعي التأصيل والعودة إلىٰ الذات البلاغية لدواعٍ حضارية وثقافية وقومية تارة، وبين الرغبة المُلحَّة في تجاوز المنظور التراثي نحو الاستنامة إلىٰ منجَزات الفكر البلاغي الغربي الذي تماهىٰ مع معارف وتخصُّصات أُخر تارة أخرىٰ. وهنا تكمن المفارقة التي غدت هاجس البحث البلاغي العربي، ولعلَّ الإشكال الذي ينغِّص علىٰ مجرياته يتحدَّد في ذلك الإسقاط القَسْري للتمثُّلات الأجنبية علىٰ قضايا البلاغة العربية دونما مراعاة

لخصوصيَّاتها اللُّغوية والجمالية ووظيفتها الحِجاجية. وهو العقبة الكأداء التي تعوق مطلب التجديد، ولا تزال تستنزف التساؤل تلو التساؤل.

ومن حيث المنهج فقد أفاد البحث البلاغي كثيرًا من منجَزات الغربيين النظرية والتحليلية، فمباحث البيان من تشبيه ومجاز واستعارة - مثلًا - شهدت انتعاشًا لافتًا؛ إذ تمكَّن الدارسون من تثمير المناهج والنظريات الحديثة قَصْدَ تجاوز المنظور الإجرائي الذي كرَّسه البلاغيون القدامى، فلطالما درَسوها وحلَّلوها مبتورة من سياقها الأدبي الجمالي الكلِّي، مكتفين بالوقوف عند دلالاتها الجزئية بمنأى عن النصِّ الذي اقتضى استدعاءها لغايات فنية وتأثيرية وإقناعية.

وهكذا أقبل الدارسون المعاصرون على دراسة الصورة الفنية وَفْق رؤية أكثر شمولية تستوعب المظاهر البيانية، فضلًا عن عناصر أخرى كالتجربة الشعورية والخيال واللُّغة والإيقاع والرمز واللون والحركة والثبات وغيرها؛ فجميعها مقوِّمات تنتظم البناء الفنِّي للقصيدة الشعرية.

كلُّ ذلك يؤشِّر على حقيقة واحدة لا يختلف حولها اثنان، وهي أن اللُّغة العربية لغة تحمل أسباب قوَّتها في نفسها، فهي لغة تتسم بمرونة عجيبة على مواءمة جميع العصور، وبالتالي قدرة علومها على مواكبة تخصُّصات غيرها من اللُّغات، وذلك لَعَمْري أحد أسرار الإعجاز الذي استمدَّته يقينا من روح النصِّ القرآني الحكيم، فقد كفل لها هذه المكانة السامقة بين لغات العالم جميعها، وهي اللُّغة التي كانت مَعينًا لشعر الجاهليين وكلام الأعراب الأوائل، واستوعبت بلاغة سائر شعراء العرب على مرِّ العصور، ولا تزال نضارتها مشعَّة قادرة على استيعاب شتى المواقف التواصلية في نطاق العلوم والتكنولوجيا والسياسة والقضاء والإشهار والإعلام والفكر ونحوها، ناهيك عن المقامات الإبداعية شعرًا ونثرًا.

*

الهـوامش

(1) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1401هـ/1981م، 244/1.

(2) أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1406هـ - 1986م، ص10.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، 113/1.

(4) نفسه، 115/1.

(5) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده، 242/1.

(6) نقلًا عن: شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: علي بو ملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2004م، 9/7.

(7) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده، 244/1.

(8) الجاحظ، المصدر السابق، 115/1، 116.

(9) ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، ط1، 1423هـ/2003م، فصل علم البيان، ص572.

(10) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.)، ص11، 12.

(11) عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان - البديع، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت.)، ص10.

(12) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص7.

(13) نفسه، ص8.

(14) ابن سنان الخفاجي، سرُّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1402هـ / 1982م، ص59.

(15) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1995، ص298.

(16) نفسه.

(17) السكّاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1407هـ/ 1987م، ص415.

(18) سنن أبي داود، حديث رقم (3740).

(19) محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط2، 2012، ص12.

(20) نفسه، ص13.

(21) جميل حمداوي، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، مقال مدرج ضمن موقع مؤسسة المثقف العربي، الرابط: http://almothaqaf.com/jupgrade/index. - تاريخ الإدراج: 2013/9/24.

(22) نفسه.

(23) نفسه.

(24) نفسه.

(25) نفسه.

(26) ابن منظور، لسان العرب، مادة (س.ل.ب)، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط3، 1419هـ/1999م، 319/6.

(27) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002م، ص89.

(28) بيير غيرو، الأسلوبية، تر. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سورية، ص17.

(29) جميل حمداوي، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، رابط إلكتروني مذكور سابقًا.

(30) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى سنة 2000م.

(31) جان بياجيه، البنيوية، ترجمة: عارف منيمنه وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الرابعة، 1985م، ص74.

(32) جميل حمداوي، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، رابط إلكتروني مذكور سابقًا.

(33) نفسه.

(34) Oswald Ducrot/Tzvetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p. 101.

(35) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999.

(36) صلاح فضل، شفرات النص: دراسة سيميولوجية في شعرية القصد والقصيد، دار الآداب، بيروت، ط1، 1999، ص80.

(37) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص5، 6.

(38) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص21.

(39) نفسه، ص22.

(40) نفسه، ص8. وذلك فضلًا عن المرحلة الأولى المتمثلة في مرحلة السرد التاريخي وتلخيص محتويات الكتب. ومن أبرز مَن مثلها الدكتور شوقي ضيف في كتابه الموسوم بـ(البلاغة تطور وتاريخ).

(41) نفسه، ص9.

(42) نفسه، ص22.
(43) باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة مخبر أبحاث في اللُّغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2011، ص166.
(44) نفسه، ص167.
(45) نفسه، ص168.
(46) نفسه، ص166، 167.
(47) سعيد حسن بحيري، علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات، ص20.
(48) نفسه، ص20.
(49) نفسه، ص29.
(50) نفسه، ص21.
(51) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص7، وبُنظر: أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية للدكتور بدوي أحمد طبانة، دار الثقافة، ط3، 1401هـ/1981م، ص56 و57.
(52) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط3، 1986، ص88.
(53) شوقي ضيف، البلاغة تطوُّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د.ت.)، ص5.
(54) نفسه، ص6.
(55) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص7.
(56) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص376.
(57) أمين الخولي، فنُّ القول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996، ص22.
(58) نفسه، ص23.
(59) جميل حمداوي، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، رابط إلكتروني مذكور سابقًا.
(60) أمين الخولي، فنّ القول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996، ص7.
(61) نفسه، ص64.
(62) رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطوُّر، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت.)، ص7.
(63) نفسه.
(64) نفسه، ص10.
(65) نفسه، ص81.
(66) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص38.
(67) رجاء عيد، المرجع السابق، ص81.
(68) نفسه، ص434.
(69) السكّاكي، مفتاح العلوم، ص412.
(70) رجاء عيد، المرجع السابق، ص435، 436.

(71) نفسه، ص188.

(72) مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية بين التأصيل والتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1985، ص126.

(73) نفسه، ص152.

(74) نفسه، ص6.

(75) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص11.

(76) نفسه، ص13.

(77) نفسه، ص15.

(78) نفسه، ص16.

(79) نفسه، ص18.

(80) حوار مع الباحث محمد العمري أجراه معه كل من محمد الولي وإدريس الجبري، مدونة إلكترونية ضمن الرابط الآتي:http://medelomari.perso.sfr.fr/hiwarbayan.htm

(81) نفسه.

(82) محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص6.

*

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE FOR ARAB RESEARCH AND STUDIES

المصادر والمراجع

أولًا- العربية:

- أمين الخولي، فنُّ القول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996.
- باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة مخبر أبحاث في اللُّغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2011.
- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية، دار الثقافة، ط3، 1401هـ/1981م.
- بيير غيرو، الأسلوبية، تر. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب.
- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1418هـ/1998م.
- جان بياجيه، البنيوية، ترجمة: عارف منيمنه وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الرابعة، 1985م.
- الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد ألتونجي، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الأولى، 1995.
- جميل حمداوي، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، مقال مُدْرَج ضمن موقع مؤسسة المثقَّف العربي، الرابط: http://almothaqaf.com/jupgrade/index. - تاريخ الإدراج: 2013/9/24.
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط3، 1986.
- حوار مع الباحث محمد العمري أجراه معه كل من محمد الولي وإدريس الجبري، مدونة إلكترونية ضمن الرابط الآتي: http://medelomari.perso.sfr.fr/hiwarbayan.htm
- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، ط1، 1423هـ/2003م.
- رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطوُّر، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت.).
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ظ5، 1401هـ/1981.
- سعيد حسن بحيري ، علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1424هـ/2004م.
- السكَّاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1407هـ/1987م.
- ابن سنان الخفاجي، سرُّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1402هـ/1982م.

- شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق علي بو ملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2004م.
- شوقي ضيف، البلاغة تطوُّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د.ت.).
- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002م.
- ـــــــــــ، شفرات النص: دراسة سيميولوجية في شعرية القصد والقصيد، دار الآداب، بيروت، ط1، 1999.
- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى سنة 2000م.
- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني - البيان - البديع، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).
- ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء.
- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1994.
- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2012.
- ـــــــــــ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999.
- محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مادة (سلب)، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط3، 1419هـ/1999م.
- مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية بين التأصيل والتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1985.
- أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1406هـ - 1986م.

ثانيًا- الأجنبية:

- Oswald Ducrot/Tzvetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage.

● ○ ●

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES